فلسفة الدين والحياة

تأليف
محمد علي الدباسي

فلسفة الدين والحياة

تأليف

محمد علي الدباسي

1441هـ - 2019م

ح محمد علي عوض طالب ، 1440هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

طالب ، محمد علي عوض

فلسفة الدين والحياة . / محمد علي عوض طالب . - جدة ، 1440هـ

271ص ؛00 سم

ردمك : 978-603-03-0071-6

1 – الدين - فلسفة . أ.العنوان

ديوي 200,1 1440 / 6643

رقم الإيداع : 1440 / 6643

ردمك : 978-603-03-0071-6

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

للتواصل مع المؤلف

بريد إلكتروني : maldubasi@gmail.com

تواصل اجتماعي : m19aldubasi

إهداء ...

إلى صاحبة الفضل الكبير و الفخامة أمي حفظها الله و إلى والدي الغالي رحمه الله ..
إلى شقيقتي الكبرى العزيزة ..
إلى زوجتي الغالية ..
إلى شقيقي الفاضل و إلى شقيقاتي العزيزات ..
إلى رفقاء الطريق ..
إلى صغاري و إلى أبناء أخي و أخواتي ..
و إلى أبناء و بنات أمتنا و إلى كل إنسان .

مع حبي ..

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي بفضله تتم الصالحات، والصلاة و السلام على أشرف المرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

بدأ علم الفلسفة منذ القدم عند اليونانيين، وانتشر في بلاد الهند، والصين، وفارس، ثم في أمريكا اللاتينية، ثم بعد ذلك انتقل إلى المسلمين عن طريق الترجمة التي اشتغل بها العلماء في عصر الفتوحات الإسلامية، والفلسفة كلمة مشتقة من كلمة فيلوسوفيا، ومعناها حب الحكمة، وهي التفكير في التفكير، وهو علم يتعلق بكل قضايا الإنسان في الوجود، ويقال بأن عالم الرياضيات والفيلسوف الشهير فيثاغورس هو صاحب أصل التسمية.

ولأن الفلسفة مهمة عند البشر في كل حضارة سابقة.

ولأن الإسلام هو من ينبغي له أن يقود حضارة العالم، ليس لشيء إلا لأنه منهج الله الذي صنع العالم الذي نعيش فيه.

ولأن بعض فلاسفة الإسلام قلدوا وتأثروا بمن سبقوهم من يونانيين فتاهوا معهم .

ولأن الفلسفة قد تستخدم أحيانًا في تغليب الخطأ، أو للتضليل والتحريف، أو للتشكيك، رغم أن الفلسفة علم يبحث عن المثالية.

وبما أننا في عصر كانت الحرب على الإسلام تبلغ أشدها، أردت الكتابة والتأليف في ذلك ليكون مرجعًا لفلسفة مبسطة وسهلة عن الدين والحياة ومدى ملائمة الدين للحياة لتخدم الوصول إلى الحقيقة، وكبح خطوات التضليل، وليكون منطلقًا للقارئ لمواجهة أي شبهات أخرى تشكل عليه، لتبعده عن الحق والعقل السليم.

كتبه

محمد علي الدباسي

17 / 6 / 1440 هـ

الفصل الأول

المدخل

هي الدنيا بكل تفاصيلها، وُجدنا فيها لنعيش على سعة أرجائها، أفرادًا وجماعات، وبمختلف اللغات والثقافات.

بالتأكيد نريد لهذا الكون الذي نعيش فيه أن يتطور، وأن نرتقي به، ليس لأننا نحب العمل، لكن لأننا نريد أن نتمتع بهذا الكون، وأن نستمتع، به طالما أننا سنمكث فيه لنعيش، ونشبع رغباتنا، ولا بأس بأن نبذل لتحقيق ذلك، فلن يكون ما نريد إلا ببذل ما لا نريد.

وما لا نريده هنا هو ما نبذله ونقدمه من أجل إعمار الأرض وتحقيق العيش الطيب.

في مكوثنا في هذه الدنيا، وسعينا لطلب الرزق وإعمار هذا الكون، لا بد من أن تدور الكثير من الأسئلة في مخيلاتنا عن حقيقة كل ما نراه حولنا وما لا نراه ولكننا نشعر به.

أسئلة كثيرة لكنها حتمًا تبدأ بمن نحن؟

ومن أجل ماذا نعيش؟

لتتواصل الأسئلة..

أين البداية، وأين النهاية لم نحن فيه؟

لماذا العبادة؟

تدور كل تلك الأسئلة في مخيلاتنا، ولم لا نسأل؟

أليس لنا عقل مميز يميزنا عن كل المخلوقات التي تشاركنا هذا الكون؟

أليس من حقنا أن نعرف مالنا وما علينا؟

وأن نعرف كذلك إجابة السؤال الأهم:

من أوجدنا في هذا العالم؟

للإجابة على كل تلك الأسئلة وما يتبعها من أسئلة أخرى لنبحر سويًا في هذا الكتاب.

وحتى نبحر جيدًا في هذا الكتاب.

وحتى لا نغرق.

وحتى لا تلقي بنا الرياح إلى الطريق الخطأ، لا بد لنا من أن نفهم حقيقة أمور ستساعدنا بشكل كبير في فهم حقيقة ما نبحث عنه، وهي أننا عبيد لله عز وجل، فذلك سيختصر علينا الكثير بالتأكيد، لكن كيف نقول أننا عبيد لله؟

ولماذا نعبد الله؟

ومن الله؟

تلك حقيقة لا بد أن نعرفها، وأن نتفق عليها، وبالطبع أن الاتفاق هنا لا بد له من أمور ليتحقق، ومن ثم نبني على تلك الأمور هذا الاتفاق، ولذلك جعلت تلك الأمور في بداية الكتاب هنا في الفصل الأول، ولو فهمناها جيدًا سيسهل علينا فهم الفصل الثاني ومفهوم أننا عبيد لله، وعندها سنبحر جيدًا فيما تبقى من فصول الكتاب ومواضيعه، ولن نغرق في هذه الحياة برغم ما فيها من مخاطر، أو ما أوجدنا من مخاطر نتيجة تجديفنا الخاطئ.

هل الأصل العلم بالشيء أم الجهل به؟

هل الأصل أننا نعلم عن الأشياء؟

بالتأكيد لا، فالأصل أننا لا نعلم، لكن هل معنى ذلك أننا نعيش في عالم غامض؟

الجواب لا.

إننا خُلقنا في هذا العالم لا نعلم شيئًا، لكن بالتأكيد أن كل شيء من حولنا يساعدنا للوصول إلى الحقائق.

أن ما حولنا يدعونا للتعلم وللمعرفة.

إنها فطرة الإنسان، وسنية الحياة.

كل شيء في هذا العالم حتمًا سيدعوك للتعلم، وللتأمل، ولمعرفة ما حولك، فصراعك من أجل الحياة يدعوك للتعلم، فأنت حتمًا ستشعر بالجوع مثلًا، وستبحث لاستكشاف طرق تحصل من

خلالها على الطعام، هذا لو فرضنا أن أحدًا لم يعلمك، وأنك لا تعرف أحدًا في هذا العالم.

لنتأمل هذا البحث..

البحث عن الطعام..

كيف ستحصل على طرق تساعدك على البحث؟

بالتأكيد ستجد نفسك تستكشف طرقًا تساعدك أثناء بحثك بالتجربة.

مثلًا.. ستجرب أن تتذوق أشياء من حولك، من شجر، وثمار وستحاول صيد الحيوانات، لأنك رأيت حيوانًا يفترس آخرًا ويأكله، أو أنك ستذهب للبحر، إلى غير ذلك من طرق والسبب هنا بالتأكيد يعود إلى الحاجة.

نعم، حاجتك دعتك للتعلم.

لنسأل:

ماهي الحاجة؟

الحاجة هي الميل لشيء تريد الحصول عليه، أو تريد التخلص منه، ولا تستطيع الحياة بدون ذلك.

هل كل شيء في الحياة نريد فعله يعتبر حاجة؟

أليست هنالك أشياء لا نحتاج إليها بالضرورة؟

بالتأكيد نعم..

هنالك أشياء لا نحتاج إليها بالضرورة.

قد نستغني عنها أثناء بحثنا، ويكون البحث هنا بحرص أقل وهذا ما يسمى بالرغبة.

لذلك هنالك فرق بين الحاجة وبين الرغبة.

إن الحاجة هنا جعلتنا نبحث.

جعلتنا نستكشف من أجل البقاء، وهذا تمامًا ينطبق على كل شيء نريد أن نحصل عليه في هذه الحياة، لكن بالتأكيد يختلف الحرص على البحث بحسب أهميته.

هنالك الكثير من الأسئلة كذلك في هذه الحياة قد نسألها لأنفسنا ونبحث لها عن إجابات، والإجابات هنا ليست من أجل حب الاستطلاع وإلا قد نسميها هنا رغبات، لكننا نبحث لها عن إجابات لأنها تساعدنا على البقاء.

وعلى الاستقرار.

نعم فليست مقومات الحياة من طعام وشراب وأمان فقط هي ما يساعدنا على البقاء في هذه الحياة.

إننا في هذه الحياة تُتعبنا أمور في داخلنا، فتجعلنا نشعر بفقدان شيء ما قد نموت لأننا لم نجده.

قوة نريد أن نحصل عليها لتساعدنا على مواجهة الحياة.

قوة تشعرنا بأننا نستطيع، لكن أين هي؟

إلى من نلجأ ونبدأ بالبحث؟

ممن نستمدها؟

كيف نحصل عليها؟

وعندها تكون الأسئلة فنجد إجاباتها في علامات الكون وما فيه من إبداع .

وقد نجدها في شعورنا الداخلي.

قد يأتينا أحد بها كرسل أرسلهم الصانع إلى هذا العالم فنؤمن بهم، و إن جاءوا منذ سنين فإننا قد نصادف أتباعهم.

أو قد نصادف الاجابات ونحن نسير في هذه الحياة دون سابق إنذار بالبحث، فتجعلنا نقف لنتأمل.

إن عدم المعرفة لا يعني الإنكار.. لا أبدًا، بل يعني الجهل به.

يعني الدعوة إلى التعلم.

إلى تكرار البحث.

إلى التأمل.

إن الإنكار يكون فقط عندما نجد إجابات تقول أن ذلك غير صحيح، أو غير ممكن.

عندما تكون النتيجة لا.

أو عندما لا نقر بما وصلنا إليه.

إن الإنكار دون بحث هو استسلام.

هو عدم رغبة في المعرفة.

هو هروب.

أو هو خوف من مواجهة الإقرار بالحقيقة التي قادنا إليها بحثنا أو نتوقع أن نصل إليها.

هو عدم اعتراف، أو بمعنى أدق هو فشل.

نعم فشل، و كل ما نفعله هو مداراة لذلك الفشل، والفشل هنا هو بسبب أننا لم نستطع التكيف مع الحقائق فأنكرناها.

لنعلم أنه لمن المهم ونحن نبحث عن إجابات لحاجاتنا الداخلية أن نبحث بشكل جيد، وبصدق، حتى نشعر بالراحة، ونشعر بأننا وصلنا إلى ما نريد معرفته، وهذا بالضبط ما سنحاول الوصول إليه في هذا الكتاب.

هل الفلسفة مطلقة أم مقيدة؟

أردت أن أسأل هذا السؤال هنا لنبني على إجابته، ولنرسم منهج لخطواتنا في هذا الكتاب، فحتى نسير بشكل صحيح لا بد لنا أن نعرف مقدار ما نمتلكه في حقيبتنا من زاد، وحجم ما نحمله من عتاد، ليساعدنا للوصول إلى ما نريد.

قبل أن نعرف إجابة هذا السؤال هنا لنتعرف على الفلسفة وبدايتها، ومفهومها.

تحدثنا في مقدمة الكتاب عن الفلسفة، وعن نشأتها، وذكرنا بأن علم الفلسفة قد بدأ منذ القدم عند اليونانيين، وانتشر في بلاد الهند، والصين، وفارس، ثم في أمريكا اللاتينية.

ثم بعد ذلك انتقل إلى المسلمين عن طريق الترجمة التي اشتغل بها العلماء في عصر الفتوحات الإسلامية، وذكرنا كذلك بأن الفلسفة كلمة مشتقة من كلمة فيلوسوفيا، ومعناها حب الحكمة

وهي التفكير في التفكير، وهو علم يتعلق بكل قضايا الإنسان في الوجود.

ذكرنا كذلك بأن عالم الرياضيات والفيلسوف الشهير فيثاغورس هو صاحب أصل التسمية.

لنعلم أحبتي بأن مفهوم الفلسفة السائد من تعريفات للكثير من الفلاسفة، والذي هو إطلاق الفكر بلا قيود، قد يكون به إشكال، والإشكال هنا هو السبب في عدم تقبل علماء الدين للفلسفة، أو في عدم تقبل الفلاسفة لوجهة نظر بعض علماء الدين عن الفلسفة، ولذلك قبل أن نجيب على هذا السؤال لا بد من إعادة بيان مفهوم الفلسفة إن كانت فعلًا بحاجة إلى ذلك، وقبل أن نحاول أن نعيد مفهومها أو نُعرفها نرى جدوة ذلك لنسأل:

من يضع تعريف للشيء؟

هل لذلك ضوابط، أم هو رأي؟

هل يتأثر التعريف بمتغيرات تُفرض عليه، وهل هو أصلًا قابل لأن يكون كذلك؟

ما هو التعريف الصحيح للفلسفة؟

لنرى ذلك..

يقول الفلاسفة، و الفلاسفة هنا هم الأحق بوضع تعريف للفلسفة أو بيان مفهومها، ووضع الضوابط لها، فتعريف الشيء وضبطه يضعه أهل فنه بما يناسب.

يقول الفلاسفة بأن تعريف الفلسفة هو العلم بالموجودات.

وهنالك أيضًا تعريف آخر يقول بأن الفلسفة هي علم الأشياء بحقائقها الكلية.

ومن التعريفات كذلك التي ذكرها الفلاسفة عن الفلسفة بأنها المعرفة الصادرة من العقل، وقالوا كذلك بأن الفلسفة هي عبارة عن المشكلات والمحاولات لحلها، وتعريف آخر يقول بأن الفلسفة هي التفكير في التفكير.

كلها تعريفات جيدة للفلسفة، لكن هنا سأذكر تعريفًا جميلًا يعرف الفلسفة ويتكلم عن حدودها من عدم ذلك، وهو أن الفلسفة هي حرية التفكير في الدين، والعلم، والحياة، وكل شيء دون قيود، وحرية التعبير كذلك دون قيود، إلا قيد القانون، هكذا يقول التعريف، بل أن كل الفلاسفة يتكلمون عن القيود فيذكرون بأنه لا قيد في التفكير بل القيد في التعبير، و هنا تساؤلات:

لماذا توجد حرية في التفكير لكن حرية التعبير لها قيود؟

لماذا الضابط في التعبير دون التفكير؟

يقولون لأن التعبير قد يكون فيه تحريض على العنف ولذلك كان لابد من وضع القيد هنا.

حسنًا، فالقيد أو الضابط هنا هو لضبط الأمور، ولحماية الآخرين من الأضرار التي قد تحدث من خلال حرية التعبير وهنا قد نقول:

أليس التفكير قد يؤدي كذلك إلى العنف؟

يؤدي إلى العنف في تجاوز الحد مع صانع الكون مثلًا؟

حسنًا.. قد تقول أنك لا ديني، وبالتالي ستطلق فكرك، ولا داعي لأن تقيدني بحدود الخالق، وأنا هنا قد أقول لك: وأنت لماذا تضع لي حدًا في حرية التعبير، ولا تريدني أن أضع لك ذلك في حرية التفكير؟

ألست تؤمن بأن الحرية في حرية التعبير مقيدة لأجل ألا تؤثر على الآخرين، ولا نستطيع بحال من الأحوال أن نجعلها غير مقيدة؟

لذلك لا بد أن تؤمن معي بأن لكل شيء حد، و أن تجاوز الحد خطأ، لأن في تجاوزه إضرارًا بالآخرين.

لكن من هم الآخرين؟

الآخرون هم غيرك سواءً من لهم مصلحة من وجود الشيء أو من ليس لهم مصلحة، وبالتالي كان القيد هنا لتتحقق مصالح الجميع بطريقة عادلة ودون إضرار لأحد، و لذلك سأضع تعريفًا للفلسفة، وهو أن الفلسفة هي البحث عن الحقائق بتحرير التفكير والتعبير دون إضرار.

دون إضرار؟

أليس الضابط هنا تقييدًا للعقل؟

نعم، هو كذلك لأن الفعل هو ترجمة للتفكير نتيجة رسم وجهة نظر معينة، وبالتالي كما أن التعبير قد يضر فكذلك الفكر، لأنه يُترجم لفعل، ولذلك قلنا بأن الضابط أو القيد هنا هو لحماية الأمور الأخرى منه.

لكن أليس ذلك يضر بالفلسفة والتي تعتمد على التفكير، وبالتالي قد نصل هنا إلى أنه لا فلسفة طالما أننا قيدنا العقل؟

الأمر ليس كذلك، ولو تأملنا هنا في الفلسفة مثلًا لوجدنا أن الضابط يحمي كل الأمور التي ستُضر بها الفلسفة لو كانت مطلقة، وكذلك في نفس الوقت نجد أنه يحمي الفلسفة.

نعم، لم العجب؟

سيحمي الفلسفة من أن تتشوه، لأن تجاوزها، و ضررها هنا هو تشويه لها، وبالتالي ستصبح الفلسفة علمًا ضارًا وفنًا يطاله التشويه من أبنائه الذين أضروا بها بضررهم لغيرهم.

إن الفنون و العلوم ما وجدت إلا لخدمة البشرية والارتقاء بها، لا للإضرار، وإن الإضرار هنا أو في أي فن آخر هو خلل في الموازين، والموازين هنا هم كل من له علاقة بهذا العلم أو الفن، والعلاقات بالتأكيد تختلف.

إننا أحيانًا نتحرج عن وضع الضوابط هنا أو في أي علم من العلوم بحجة أن الجو العام لا يرغب بذلك، أو أن هنالك توجه سائد لا ينبغي الميل عنه، مما يؤثر على تلك العلوم، وعلى ضبطها، وهذا بسبب ثقافة سائدة فرضها واقع معين، أو أن تكون بسبب علماء ذلك العلم، الذين لا يريدون أن يحيد أحد عن تلك المبادئ التي فرضوها، أو فُرضت عليهم، و لذلك لا بد من أن تكون الواقعية حاضرة لا المؤثرات.

إن مختلف العلوم والفنون وُجدت في هذه الحياة لتضيف لها، وتساهم في رقيها، ولن يكون الارتقاء بعيدًا عن المراد الحقيقي للأمور، والتي هي في الأصل مراد الله، لأن ذلك هراء، ولأن

الله هو من أوجد كل شيء هنا، و بالتالي ما يحيد عنه حتمًا لن يكون صحيحًا، فلا وصول في طريق منحني.

لكن هنا قد يسأل سائل:

لماذا الخوف من إطلاق الفكر في الفلسفة؟

نؤمن بأن حرية التعبير هي فعل، والفعل شيء محسوس وبالتالي ضرره محسوس، ولا بأس من وضع القيد هنا لكن ماذا عن الفكر؟

هل لأجل أن يكون الفكر وفق مراد الله فنضع الضابط هنا؟

هل الله يضره حرية الفكر؟

لماذا نتحدث من أن الفلسفة لا نريد لها أن تخضع للمؤثرات ثم نحن بعد ذلك نُخضعها لمؤثر الدين؟

لماذا لا نجعل الإنسان يبحث ويبحث طالما أن بحثه هنا لحاجة يريد أن يحصل عليها كما ذكرنا؟

لماذا نُطالَب بالتوقف عن الاستمرارية في التفكير؟

لماذا نحن مطالبون بالوقوف عن التفكير عند نقطة معينة؟

لماذا تلك الخطوط الحمراء؟

للإجابة هنا لنعلم بدايةً بأن الله سبحانه هو أغنى الأغنياء عن عباده - سنتوقف في الكلام عن إثبات العبادة إلى الفصل القادم - ولن ينفعه أو يضره شيء سبحانه، لكنه وضع لكل شيء ضابط من أجل البشر، ولأمور كثيرة سنعرفها في الأسطر القادمة.

من تلك الأمور أن لا يقعوا في الشرك، لأنه طالما أنه هو الرب ونحن العباد، وأن بانتظارنا جنة و نار، و أننا هنا في الدنيا للابتلاء والاختبار، كان الفكر من أنواع الابتلاءات في الدنيا، ولذلك قيد الله الفكر حتى لا نقع، و نفشل في الاختبار، لأننا لن نستطيع أن نواصل التفكير، فنحن ببساطة لنا حدود في الفكر توقفنا عند نقطة معينة، تمامًا مثل أي شيء آخر، وهذا من الواقعية، و ليس خضوعًا لمؤثر الدين كما يقال، ولو كان خضوعًا للدين فالدين هنا أوجده الصانع الذي خلق الكون، والذي هو أعلم بما يناسب هذا الكون، وهذه واقعية أيضًا وهنا سؤال للتوضيح:

كم من البشر تستطيع أن تهزم دفعة واحدة؟

واحد؟

اثنين؟

خمسة؟

سبعة؟

تسعة؟

ثم ماذا؟

ستُهزم بعد ذلك بالتأكيد، ولن تستطيع أن تقاوم لسبب بسيط وهو أن قوتك الجسدية لا تستطيع على أكثر من ذلك، وبالتالي ستقف حدودها هنا، و بعد ذلك هو ضرر عليك، وكذلك بالنسبة لفكرك، لك حدود في التفكير، وبعدها ستتوقف رغم أن لأسئلتك إجابة عند الله، لكن الله الخالق جعل طاقاتنا تتوقف هنا بسبب الضرر، و الضرر هنا سيصيب الفلسفة بالتشويه، لأنها لن تصل، بل ستدخل في كلام فارغ ليس بمفيد ، ولا يُبنى على عقل، أو قوانين كونية وُجدت لهذا الكون، بل سيصبح تفكيرًا سلبيًا، أو قد تصل بصاحبها إلى الجنون، والأهم أن تصل به إلى إنكار وجود الله، وهذا وصول خاطئ بالتأكيد وتفكير سلبي كما ذكرنا والوصول هنا يعني الضياع والضياع هنا يعني هلاك صاحبه وفشله في الابتلاء الذي تكلمنا عنه، وبالتالي البعد عن الهدف الذي من أجله جاء إلى الحياة.

إننا في النهاية في دار ابتلاء لنا حدود لا نتعداها.

لا نحيد عنها.

إننا في الأفعال نستطيع أن نفعل أكثر من أمر، لكننا نتوقف عند الوصول لأمر معين، وإن كنا نستطيع المواصلة، لكنه وصول لمحطة الضرر بالآخرين، وبنا أيضًا، فكان الوقوف، وكذلك نحن في الفكر، والذي ذكرنا بأنه يُترجم إلى فعل، وبالتالي قد يضر.

إننا عندما نستخدم الفلسفة فإننا ننطلق، ونفكر باستخدام قوانين وُجدت في هذا الكون، وإن هنالك أسئلة تتعدى هذا الكون، وبالتالي هي بحاجة إلى قوانين من خارج هذا الكون، ونحن بالتأكيد لا نملك تفاصيل تلك القوانين، ولن نصل إليها فكان التسليم لله.

إننا بشر، لنفهم ذلك جيدًا.

وسنفهم ذلك بالتأكيد طالما أننا عرفنا الآن بأنه لا توجد فلسفة مطلقة، وطالما أننا سنعرف كذلك بأنه لا توجد حرية كاملة في هذا الكون.

من أوجدنا هنا؟ ولماذا نحن هنا؟

سؤال لا أعتقد أن هنالك ما هو أهم من الإجابة عليه ونحن نبحث في هذا الكون عن حاجاتنا.

بالتأكيد لهذا الكون صانع هو الله عز و جل، الذي خلقنا وأوجدنا هنا لعبادته، وهذا أمر لابد من أن نؤمن به.

حتى لو لم نؤمن بوجود الله عز وجل معاذ الله فلا بد أن نقر بأن هذا الكون وبكل تفاصيله وما فيه من إبداع لا بد له من صانع مبدع رتب فيه كل شيء، لأنه لن يكون هذا الإبداع بأي حال من الأحوال انفجارًا عشوائيًا.

لكن قبل أن نتكلم عن من صنع الكون، لنعرف بدايةً من نحن؟

نحن بشر بالتأكيد لكن من هم البشر؟

من هو الإنسان؟

لو قلنا بأن الإنسان هو كائن حي عاقل، فهل معنى ذلك أن الإنسان الذي أصابه الجنون ليس بإنسان؟

هل نقول بأن الإنسان النائم فقد إنسانيته أثناء نومه؟

هل نقول على هذا المعنى بأن الجان إنسان؟

ما مفهوم العقل؟

هل له مقدار؟

العقل هو قوة إدراكية جعلها الله في الكائنات الحية لتدرك الأشياء، و لتتصرف من خلال ذلك الإدراك، و قوة العقل هنا تختلف من كائن إلى كائن آخر، فهي مثلًا محدودة جدًا لدى الحيوانات لتعيش حياتها بالقدرات التي يملكها عقلها، و هي قدرات تساعدها على البقاء في الحياة، لا على أن تقود الحياة، والذي يبقي الحيوانات على قيد الحياة ليس الغذاء والتكاثر فقط، لكن كذلك الأمن فهي لها من القوة العقلية ما يعينها لتحقيق أمنها وحماية نفسها إما بالاختباء، أو المواجهة، أو الهرب ، وهذا هو الفرق بين عقل الإنسان والجان و غيرهما من الكائنات الحية، ولذلك نقول بأن العقل موجود في كل الكائنات الحية أو لنقل أغلبها، لكنه يختلف بحسب الهدف الذي خُلقت من أجله.

لكن هل معنى ذلك بأن العقل موجود في النباتات طالما أنها من الكائنات الحية؟

الجواب لا..

لنعلم بأن العقل في النباتات معدوم لأنها تعتمد على عنصر خارجي لطلب الغذاء والحماية، و إن كان لها جذور تبحث بها عن المياه حال فقدانه بسبب ذلك العنصر الخارجي، حتى عملية اللقاح يقوم بها عنصر خارجي مثل الرياح أو الإنسان، ولذلك رسالة الله و التي سنتكلم عنها خلال رحلتنا في هذا الكتاب كانت للإنس و للجان صاحبا العقل الأكبر، ولذلك هما من أُمرا بالعبادة.

قد يقول قائل بأن بعض النباتات تأكل الحشرات وبالتالي هي تخطط لاصطياد فريستها، والتخطيط قطعًا بحاجة إلى عقل، حتى ولو كان ذلك العقل محدود الفكر فلماذا نلغي عنها صفة العقل؟

حسنًا.. النباتات هنا لها مقومات تجعلها قابلة لجذب الحشرات، ثم إذا وقعت الحشرة على النبتة فإن هنالك سائلًا لزجًا يجعل الحشرة تنزلق لجوف النبتة ثم تبدأ عملية هضمها، ولو تأملنا لوجدنا أن النبتة هنا ليس لها دور في عملية استدراج الحشرة

تمامًا مثل عدة الصيد التي يعدها الصياد لتقع الفريسة، فهل نقول هنا بأن لعدة الصيد عقل؟

هنا قد يكون سؤالًا وهو:

هل يُرى العقل بالعين المجردة؟

الإجابة لا.. وهنا يكون سؤالًا آخر:

هل كل شيء نستطيع أن نراه بالعين المجردة؟

بالتأكيد لا.. لأن الله قادر على صنع ما لا تراه العين، أو ما لا قد يكون ماديًا ولو قلت لي بأنك لا تؤمن بقدرة الله وأنه الصانع فسنتحدث عن ذلك خلال رحلتنا في هذا الكتاب.

إذًا نستنتج مما سبق من أن وجود العقل لا يعني أنك إنسان.

إذًا من هو الإنسان؟

قد نقول بأن الإنسان هو كائن حي عاقل مُكلَف خُلق من طين.

وقلنا خُلق من طين للتفريق بين الإنس والجان، فكلاهما مكلف والتكليف بالعبادة هو من بعد البلوغ لكنه ذُكر في التعريف لأنه مطالب به ولو بعد حين.

هنا كذلك سؤال آخر:

هل نعتبر الإنسان الآلي إنسانًا؟

الجواب لا، لأنه ليس كائن حي فهو آلة بطبيعته، مثله مثل خط الإنتاج في أحد المصانع، لا يملك عقلًا، ولا يستطيع التصرف، بل إنه يتصرف بفعل مؤثر خارجي، والمؤثر الخارجي هو الإنسان الذي برمجه على نظام معين مثل الكمبيوتر، ليس له حق في تقرير مصيره، وكذلك لا تدب فيه الحياة، والحياة هنا ليس المقصود بها الحركة، بل الحياة هي في القدرة على البقاء فيها، والنمو، والموت، وهذه قطعًا لن تكون في المسمى الإنسان الآلي.

إن الإنسان وبقية الكائنات الحية لها أدوار في هذه الحياة، فهل يستطيع المسمى الإنسان الآلي تحقيق بعض تلك الأدوار فضلًا على أن يكون خليفة الله في أرضه؟

لماذا لم نقل عن الإنسان بأنه كائن حي ناطق؟

ذُكرت تعريفات كثيرة بأن الإنسان كائن حي ناطق لأن الحيوانات لا تنطق وهذا خلاف الصحة، فالحيوانات تنطق بما يفهمه بعضها عن بعض، وليس شرطًا أن نفهم ما تقول، فهم كذلك لا يفهمون ما نقول، ولذلك ذُكر في كتاب الله بأن النملة خاطبت النمل عندما مر بجوار قريتها النبي سليمان عليه

السلام، وسليمان هو النبي الذي علمه الله منطق الطير والحيوانات كما جاء في كتاب الله:

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ۖ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿16﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿17﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿18﴾﴾[1]

فكيف نقول بأن الإنسان هو الكائن الناطق الوحيد؟

هنا قد يأتي سؤال آخر:

لو فقد الإنسان عقله هل يخرج من إنسانيته؟

بالتأكيد لا.. لأن الفقد هنا لا يعني عدم وجوده لكن نقول هنا بأن عقله أصبح ضعيفًا جدًا أو فقد قوة العقل، لأن الأصل في الإنسان وجود العقل.

حسنًا.. لنعد الآن إلى هذا الكون وللحديث بأنه ليس انفجارًا عشوائيًا.

[1] سورة النمل آية 16-18 .

نعم، لن يكون انفجارًا عشوائيًا.

ولنتأمل..

الليل.. النهار.. الشمس.. القمر.. الأوقات.. المخلوقات.. الهواء.. الأكسجين وثاني أكسيد الكربون.. التحللات.. المطر.. الجينات.

كل ذلك وغير ذلك هو تنظيم رائع، وتناسق بديع، يستحيل أن يكون بدون صانع، فهل من المعقول والحكمة أن يكون كل هذا التنظيم والإبداع والتناغم انفجارًا؟

بالتأكيد لا.. لأن الانفجار يولد العشوائية لا التنظيم، ثم هو بحاجة إلى قوة، فهل تملك الطبيعة هذه القوة الخارقة؟

هل الطبيعة التي قالوا أنها ولدت هذا الانفجار هي من يدير الكون الآن بكل ما فيه من استمرارية الحياة، وتوالد الكائنات، وتعاقب السنين؟

لو سلمنا الآن أن الطبيعة هي من أوجد الكون، وأن هنالك انفجارًا عشوائيًا، فلا يعني ذلك أن الأمر انتهى هنا، لأن كل ما حولنا من استمرارية يدل على وجود الصانع، ولو أقررنا بوجوده لا بد أن يتردد في مخيلتنا السؤال التالي:

من يكون الصانع؟

هل ما حولنا يدلنا على صانع بعينه؟

هل هنالك من ادعى أنه هو الصانع؟ وهل يستطيع الإجابة على التفسيرات العالقة في مخيلاتنا عن حقيقة ما صنع؟

إن الله عز وجل قد قال ذلك عن نفسه بأنه خلق كل شيء، وأرسل رسلًا للبشر مثلنا، ليبينوا لنا ذلك بالأدلة والبراهين، وذكر في كتبه التي أنزلها على رسله، الكثير من العلامات والدلالات التي تدل على أنه خلق هذا الكون، والتي إلى عصرنا الحاضر، ومنذ أكثر من أربعة عشر قرنًا من نزول آخر الكتب مازال العلماء يكتشفون من العلامات ما تزيدنا يقينًا من صحتها، ومن موافقة الطبيعة وكل شيء في هذا الكون لهذا الكتاب الذي أخبر بالكثير من الأمور التي لم يكن يُعلم عنها، وتلك كلها اثباتات، وعندما يأتي من يقول بأن هنالك صانع آخر فلا بد له من اثبات، ولذلك عندما يُثبت لنا بأن الله عز وجل هو الصانع الحقيقي ينبغي لنا أن نؤمن بما يُخبرنا به عن طريقة صنعه للكون.

سأذكر هنا مثالًا لأمور تكلم فيها الفلاسفة سابقًا وهي نظرية التطور، أو نظرية داروين، وهي التي تقول بأن الكائنات الحية

تولدت من بعضها البعض وتطورت، واستدل على ذلك بعدة أشياء يرى أنها استدلالات منها التشابه في الصفات، فهل يعقل بأن التشابه في الصفات الخَلقية يدل على التطور؟

ألا يدل ذلك على أن الصانع واحد وأن ليس هنالك صانع غيره؟

هل يمكن تطبيق نظرية التطور على الحشرات و التي تمثل حوالي 80% من الكائنات الحية؟

ثم لو سلمنا مثلًا بأن بداية الإنسان قرد أو شيء آخرًا، فلن نصدق ذلك، أو نبدأ في الحديث عنه، إلا إذا كنا نجهل الصانع، أو أن الصانع لم يخبرنا بحقيقة ذلك، لكن طالما أن الصانع الذي أثبت بالدليل أنه الصانع، ثم بين لنا كيف استطاع أن يصنع، وأن يخلق الإنسان، فعندها لا بد لنا من أن نقر بصحة بيانه لما صنع.

لنعلم بأن الأمور بحاجة إلى براهين، وطالما أن البراهين موجودة فلما نسلك طرقًا ملتوية نقول بأننا نبحث عن نتائج من خلالها؟

لماذا أحيانًا نغالط من أجل أننا نريد أن نكذب أمورًا نعرف أنها حقائق؟

إن نظرية داروين لا شك أنها تخدم في مجالات كثيرة أهمها استخلاص العلاجات للأمراض، لكن حتمًا لن تجدي أمام أمر أثبته الصانع، طالما أن الصانع ليس داروين.

هنا تساؤلات:

لماذا لا يؤمن بعضنا بأن الله هو الصانع؟

لماذا يصر بعضنا على أنه انفجار كوني، أو أنه أي شيء آخر؟

هل يخشون وجود الله بذاته أم هم يكرهون أصلًا وجود رب؟

باستثناء الملحدين و الذين هم نسبة ضئيلة جدًا في هذا العالم لا تتجاوز 8% حسب استطلاع لهيئة الإذاعة البريطانية عام 2004م فإن تلك النسبة تدلنا على أن البشر على هذا الكوكب يعبدون آلهة اختاروها لأنفسهم، أو وجدوا أنفسهم يعبدونها، وينتمون لأديان، وهذا يدل على أن البشر في هذا العالم يرغبون بوجود الرب في حياتهم، وهذا الأمر ليس حديثًا الآن بل هو منذ القدم فقد قال المؤرخ الإغريقي بلوتارك: (لقد وجدت في التاريخ مدن بلا حصون، و مدن بلا قصور، و مدن بلا مدارس، لكن لم توجد مدن بلا معابد)، وإن كانت ظاهرة

الإلحاد بدأت بالانتشار في هذه الأيام، أو لنقل هنالك محاولات لنشرها.

إن البشر بطبيعتهم يميلون إلى اتباع دين ورب يلجئون إليه بسبب أنه إذا ضاقت بهم الدنيا وشعروا أنهم بحاجة إلى روحانية تبعد عنهم كدر الحياة، وإن كانت هذه الروحانية بالنسبة للديانات الباطلة مزيفة في حقيقتها.

نعم، فلن تكون تلك الروحانية حقيقية طالما أنها بعيدة عن الإله الحق رب العالمين، الذي يستطيع أن يغير ما تعاني منه حقيقةً لا توهمًا، لكننا هنا نتحدث عن كره أو حب البشر لوجود إله في حياتهم، وهذا مضمون حديثنا الأن و هنا نسأل:

لماذا لا يتبعون الله الإله الحق طالما أنهم يحبون وجوده في حياتهم؟

لماذا الناس في حياتهم يبحثون عن الأجود لكن لا يكون الأمر كذلك عند اختيار دياناتهم؟

هل ضلوا الطريق؟

أم أنهم اقتنعوا بباطلهم؟

هل ترى عقولهم أنهم على الحق؟

هل أقنعتهم دياناتهم التي هم عليها بذلك، أم أن الأمر لا يتعدى الاقتداء بالسابقين؟

أم هو الخوف من تحمل مسؤولية، فكان إما إلحاد، أو اتباع دين لا يجبرك على أمر ما؟

أم بسبب وجود طاغية أجبرهم على دين معين؟

في الفصل القادم سنجيب على هذه التساؤلات، لكن قبل أن ننتهي هنا هنالك سؤال أخير وهو:

ماذا لو اكتشفنا أننا في عالم غير حقيقي؟

سؤال بالتأكيد غريب جدًا.

هل نحن في حُلم مثلًا؟

هل هذا عالم خيالي؟

إذا كنا نحلم، وأن هذا العالم غير حقيقي، ففي أي عالم نحن ننام الآن ونحلم من خلاله؟

متى سنستيقظ؟ وكيف سيكون حالنا بعد ذلك؟

أين حقيقتنا؟

بل أين واقعنا؟

يقولون كذلك بأن الألم الذي يصيبنا لا يصيب أعضاؤنا بل عقولنا.

كيف ذلك؟

لماذا إذًا عندما نتألم نعالج العضو المصاب لا العقل؟

إنه هراء بحاجة إلى أن نستيقظ منه.

الفصل الثاني

فلسفة العبادة

ماذا تعني كلمة عبادة؟

عندما نسمع مصطلح عبادة إلى أين تذهب عقولنا؟

ما هي الكلمة المضادة لكلمة العبادة؟

هل العبادة ضد الحرية؟

هل نستطيع الجمع بين العبادة وبين الحرية؟

مالفرق بين العبادة والطاعة؟

لنعلم بدايةً بأن العبادة تختلف عن الطاعة، فالعبادة هي توجيه حياة الإنسان نحو معبود دون تقييد، وهي تذلل وخضوع كامل ومطلق ولو لم تكن خضوع كامل ومطلق لم سميت عبادة، لأننا حينها قد نسميها بأي اسم آخر غير العبادة كالطاعة مثلًا، والطاعة هنا هي استجابة لأمر معين بذاته دون أمور أخرى بالضرورة وفق ضوابط معينة.

طالما أن العبادة مطلقة في كل الأمور وفيها تذلل وخضوع فهي بالتأكيد ضد الحرية، وهنا قد نسأل

هل الإنسان مكبوت الحرية؟

هل كل الأديان تفعل ذلك و تكبت حرية الإنسان؟

هل الإسلام والذي هو دين الله الذي خلق الكون كذلك؟

أليس الإسلام يقول بأنه يضمن حرية الإنسان؟

للإجابة على ذلك لا بد أن نجيب هنا:

أين نريد الحرية؟

بالتأكيد سنقول أننا نريد تحقيقها على هذه الأرض، وفي هذه المجتمعات، لكن طالما أننا نريد تحقيقيها على هذه الأرض فالإنسان هنا مطالب على هذه الأرض بالعبادة وبالتالي ستتقيد حريته هنا بحسب تعريف العبادة، وعلى ذلك سيكون من الصعب تحقيق الحرية على هذه الأرض.

إن الحرية بين الإنسان بوصفه عبدًا لله عز وجل وبين ربه لن تتحقق لأنه مأمور بعبادته، والحرية بين العبد والمعبود مستحيلة التحقق لأنهما ليسا قرينين أو ضدين، بل هي علاقة من أدنى

إلى أعلى، فلا مقياس للتكافؤ بينهما، فالمعبود هو من أوجد هذا الكون الذي فيه العابد، بل هو من خلق العابد الذي أمره بعبادته.

إنها بالتأكيد حرية صعبة التحقيق، خاصة عندما تكون العبادة ليست اختيارية، فالإنسان لا يملك حرية اختيار هذه العبادة أو اختيار منهجها أصلًا طالما أن خالق الكون هو من خلقه وأوجده في كونه، ثم أمره بأن يسير على هذه الأرض، ووضع له ذلك المنهج، وعلى ذلك لا ينبغي للعبد أن يفهم منهج العبادة بطريقته فيضل، ولو كان لكل إنسان الحق في فهم الدين بمراده أو يُرضخ الدين لمتغيرات واقعه؛ لزاغ عن الحق من غلبت عليه شهوته، أو ضعف فهمه، أو قد لا يقبل بمنهج العبادة أصلًا لأن فكره لم يقبل الدين، ولذلك لا بد وأن تكون العبادة وفق منهج أراده الله، وبينه نبينا محمد صلى الله عليه و سلم في سنته كما ذكرنا.

و بما أنه قيد حريته هنا فإنه سبحانه مع أمره بالعبادة وعد ذلك العبد بأنه سينال مقابل ذلك أجرًا عظيمًا، و جزاءً كبيرًا، و حرية حقيقية في الجنة نتيجة تحقيق تلك العبادة وسيتعدى هذا الجزاء وتلك الحرية الحقيقية مفهوم الحرية التي كان يريدها

والتي لم ينالها على هذه الأرض، والتي هي مطلب لكل البشر بالطبع.

نعم، الحرية هي مطلب، لكن سيكون ذلك الجزاء لو فهم العبد ذلك و تدبر هو ما سيغنيه إن أطاع معبوده كما ذكرنا؛ عن طلب حرية دنيوية كل المعطيات الدنيوية تقول بأنها لن تتحقق وإن حاول تحقيقها.

لنأتي إلى مسألة مهمة:

طالما أن التسليم للمعبود عبادة أرادها الله المعبود لعباده، وأن ذلك قتل لحرية العباد، لماذا لا تُنظم هذه الحرية بين العابد والمعبود؟

ذكرنا من أن حرية بين الإنسان بوصفه عبدًا لله وبين ربه لن تتحقق؛ لأنه مأمور بعبادته والحرية بين المعبود والعابد مستحيلة التحقق لأنهما ليسا قرينين، فهي علاقة من أدنى إلى أعلى كما ذكرنا، ولا يوجد تكافؤ، وهو بعبادته لربه سينال مقابل ذلك أجرًا عظيمًا، وجزاءً كبيرًا، وحرية حقيقية نتيجة تحقيق تلك العبادة، والجزاء العظيم والحرية الحقيقية التي سينالها مقابل تلك العبادة ستتعدى مفهوم الحرية والعبودية وقد تكلمنا عن ذلك، ولتوضيح ذلك نسأل:

هل يملك الإنسان حرية نفسه في قرار إلقاء نفسه في النار؟

بالتأكيد لا، لأن ذلك فيه ضرر بالنفس، ولذلك مخالفة المعبود فيها ضرر بنفسك، وسيؤدي بك إلى دخول النار، وستسجن في جهنم، وستُحرم من حرية الجنة، تلك الحرية الحقيقية، وما دام أن الله خلقك وخلق كل هذا الكون، فهو أدرى بما يناسبك لتعيش بسلام في حياتك الدنيا المؤقتة على هذه الأرض، ولذلك هل الطبيب الذي يصرف لكل علاجًا لا تحبه يعتبر متدخلًا في حريتك؟

هل نقول بأن شربك للدواء مخالفًا لمبادئ حريتك؟

لماذا؟

لأن الطبيب هنا يريد مصلحتك، لأن النتيجة هي صحتك التي ستخرجك من قيود سرير المرض إلى الانطلاق، وكذلك طاعتك لربك في الدنيا، ستخرجك من قيود الدنيا إلى العيش بحرية في الجنة.

إذًا أنت بطاعتك تسير على طريق الحرية الحقيقية، ولذلك كل ما تشاهده من قيود هو حماية لحريتك الأبدية في الجنة، ولذلك قد نقول بأن العبادة هنا والتي هي بين الإنسان أو الجان وبين

الله عز و جل؛ هي طريق للوصول إلى الحرية، وغير ذلك هي حرية مزيفة والتي تكون عندما يريد الإنسان سلوك الطريق الآخر والذي هو طريق الغواية، والتي يظن صاحبها أنها حرية لكنها ستوصله إلى قيود العذاب في الآخرة.

هذا الجزاء الذي هو في الجنة سيكون تعويضًا من الرب المعبود لعباده على صبرهم، وطالما حضر ذلك العوض الكبير فسيغني عن كل معاناة لا محالة.

هنا تساؤل:

كيف تتحقق للعبد حرية حقيقية في الجنة ونحن نعلم بأن الجنة سيكون فيها بشر آخرون يريدون تلك الحرية بالتأكيد؟

للإجابة هنا لا بد وأن نعلم بأنه وبحسب نظريات وقوانين الدنيا لا يمكن تحقيق ذلك، لكن في الجنة يمكن تحقيق ذلك لأنها خارج الحياة الدنيا وحساباتها، وبالتالي ستسري عليها قوانين ونظريات من خارج هذا الكون، والتي هي بالتأكيد ستحقق ذلك، وهنا لا بد أن نعلم بأن لكل عَالَم نظرياته، والتي قد لا تسري على عَالَم آخر، والتي رتبها جميعًا الله عز وجل صانع كل ذلك، والقادر عليه، وسترون كيف أننا سنتكلم عن ذلك كثيرًا في هذا الكتاب.

إذًا العبادة هي استسلام لله، والاستسلام هنا أن نكون تحت تصرف الله، والتصرف هنا ليس كما نفهم، وهو أن يفعل بنا ما يريد، وهو قادر سبحانه، وله الحق فيما خَلق، لكن أن نسير حسب ما يريد، والاستسلام هنا اعتراف بالضعف أمام هذا الرب، والاعتراف بالضعف دليل منا على قوته هنا، وبالتالي ستصبح لدينا نظرية تقول: لن نستطيع تنظيم وترتيب شيء غير موجود، والغير موجود هنا هو بالتأكيد حرية العبد أمام معبوده.

حسنًا، هنا سؤال :

لماذا الله جعل العبادة؟

هل هو محتاج لعبادتنا له؟

لماذا الاختبار؟

لماذا التعب والألم؟

لماذا لا يكون الجزاء مباشرةً؟

لم كل ذلك؟

للإجابة هنا لا بد لنا أن نعلم بأن الله خلق الإنسان، وأن الإنسان هنا يتكون من شيئين وهما:

1- جسد.

2- روح.

و لو تأملنا في الجسد والروح لعلمنا بأن لكل منها متطلبات ليستمرا في الحياة.

إن الجسد بحاجة إلى طعام وشراب ليبقى على الحياة، وإن الروح كذلك بحاجة إلى ما يبقيها على الحياة، لكن حياتها تختلف بالتأكيد عن حياة الجسد.

إن نهاية حياة الجسد تعني الموت، وإن نهاية حياة الروح تعني كذلك الموت، لكنها بالتأكيد تختلف عن موت الجسد.

إن موت الروح هو تيه وشعور بالضعف، وخور، وضياع للهوية ولذلك هي بحاجة إلى ما يحيها.

إن الله فرض العبادة ليس لأنه بحاجة إليها من عباده، فهو غني عن ذلك، ومن خلق ليس بحاجة إلى ما خلق.

إن العبادة هي حق الله على عباده، في نفس الوقت لنعلم بأن هؤلاء العباد بحاجة إلى العبادة لتبقى الروح، تمامًا كما أن الجسد بحاجة إلى الطعام والشراب ليبقى.

إن العبادة هنا هي قوة لتلك الروح لتحييها، والقوة هنا لن يحققها إلا مصدر قوي تستمد منه الروح تلك القوة، وهذا المصدر بالتأكيد لا بد وأن يكون أقوى من ذلك الإنسان، وأعلم بتفاصيله، فكان الخضوع لله ، وكانت تلك العبادة .

إن الكثير ممن فقدوا هذه القوة أصابهم التيه بموت الروح، فتاهوا في هذه الحياة، وأدى ذلك لفقدهم لأجسادهم بالانتحار تمامًا مثلما فقدوا أرواحهم.

مما سبق نستطيع أن نقول بأن أفضل تعريف للدين هو التعريف الذي قالوا فيه بأن الدين هو: اعتراف بشري بوجود قوة خارقة تستحق العبادة، وهذا تعريف جميل طالما أن الإنسان يعبد لأنه يريد شيء يستمد من عبادته قوة لروحه، و لن يستمد القوة إلا ممن هو قوي أصلًا، ولذلك إبراهيم عليه السلام وهو من أنبياء الله الرب الحق؛ والذي بعثه لقومه عندما تحاور مع النمرود؛ وهو ملك ادعى أنه الرب وأنه يستحق العبادة؛ كان حوار قوة، فقد قال له إبراهيم عليه السلام حتى يثبت له بأن الله هو الرب الحق ولا إله غيره : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ

فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (258) ﴾[1] كان حوارًا يعتمد على القوة كما ذكرنا.

القوة في فعل الخوارق، فكيف تريد يا نمرود أن تكون الرب وأنت لا تملك الخوارق؟

ما فائدة أن تكون إلهًا وأنت قدراتك مثل الكائنات التي حولك، أو أقل؟

كيف للإنسان أن يعبد من كان مثله أو أقل؟ أم أن الأمر بالنسبة للعبد هو عبادة أي شيء والتعلق بأي قوة لأجل الهروب من الصراع الروحي، أو الهروب من الالتزام بعبادات أوامر ولو على حساب أن نخدع أنفسنا ونصدق ذلك الضعيف الذي يدعي أنه الرب وإن علمنا أنه باطل، وسنعرف في الفصل القادم أكثر عن هذا الذي يقولون عنه بأنه صراع بين الدين والإنسان أو الحياة .

إن العبادة والاختبار هي كذلك لإقامة الحجة، ولا يتعارض ذلك أبدًا مع علم الله عز وجل، فالله سبحانه يعلم مسبقًا ما ستقدمه في هذه الحياة، لكن كانت العبادة كذلك من أجل إقامة الحجة على

[1] سورة البقرة آية 258 .

العابد، ولذلك كانت الأوامر الشرعية التي يؤمر بها كل إنسان، وكذلك ما يصاحب تلك الأوامر من ابتلاءات أخرى، كمرض، أو فقر، أو أي مشكلة لتكون شاهدة على ما قدم كل إنسان، بل وكل إنسان سيشهد على نفسه، وسيعرف أهل النار إجابة سؤالهم عندما يدخل أهل الجنة الجنة مباشرة ويدخل أهل النار النار مباشرة:

لماذا نحن هنا؟

لم لا نكون في الجنة مثل أصحاب الجنة؟

إنها سنوات وقرون مضت وتمضي لكنها لا تساوي شيئًا أمام الخلود الدائم الذي سيكون بعد ذلك.

إن العبادة كذلك هي تعليق تلك الروح بربها الحقيقي حتى بعد دخولها الجنة.

تعليق واعتراف بفضل الله على تلك النفس لتصل إلى الجنة وتتمتع بكل ما فيها.

لنعد إلى الحرية هنا؛ ولنعلم بأن أمر الحرية في العبادة لم ينتهي هنا في الدنيا بين العبد وربه، فهنالك حرية كفلها الله سبحانه بين عباده وهي أنه سبحانه يعطي العبد حرية ليستمتع بها في الدنيا

على هذه الأرض بينه وبين أقرانه من البشر، وهذه حرية متحققة لأن الإنسان لا يعبد أقرانه، بل يشكل معهم مجتمع في هذه الحياة، فنجد الإنسان مستمتعًا بحريته مع أقرانه، ولن يستطيع أحد منهم سلبها منه طالما أن الله نظم هذه الحرية بينهم، ولذلك هي حرية ليست كاملة ولا توجد أصلًا في الدنيا حرية كاملة، ولو سألت لماذا لا توجد حرية كاملة، سأسألك:

ما معنى الحرية؟

ما مفهومها؟

الحرية هي فعل كل ما يريد الإنسان بلا قيود أو موانع.

جميل جدًا، لكن هل يمكن تحقيق ذلك على هذه الأرض؟

لو كانت الإجابة بنعم، فماذا لو اصطدمت حرية إنسان بحرية إنسان آخر؟

ماذا نفعل؟

نقدم من؟

لو حققنا للإنسان الأول ما يريد لتدخلنا في حرية الإنسان الآخر، وهنا لا نستطيع تحقيق الحرية لكليهما، ولذلك كان تنظيم الحرية.

نعم، كان التنظيم، والتنظيم هنا لا يعني حرية كاملة، بل مقيدة بضوابط، والضوابط هنا لم تأتي من أجل قتل الحرية لكن من أجل تنظيمها، لكنها على كل الأحوال ليست حرية كاملة، وعلى ذلك من يدعي بأنه يدعو للحرية فهو كاذب لأنه لن يحققها، لكنه فقط يريد أن يخرجك من قيود معتقدك إلى قيود معتقده هو.

هنا سؤال:

قد يقول قائل بأن الحرية تكون مقيدة في الفعل لكنها ليست مقيدة في التفكير والمعتقد لأننا في الأفعال قد نصطدم بحرية كائن آخر لكننا في الفكر بالتأكيد لن نصطدم بحرية كائن آخر فهل هذا القول صحيح؟

هذا القول غير صحيح، و تتذكرون عندما تكلمنا عن الفلسفة وقلنا بأنها مقيدة لأنه وكما قيدنا حرية التعبير بسبب ألا يصاب أحد بضرر كان تقييد الفكر لكي لا نضر بأحد، ولا نتجاوز مراد الله، وأن ذلك قد يضر بالعقل ويصيبه التشويه، وكذلك بسبب قوانين الكون، إلى غير ذلك، وهذا كذلك ينطبق على الحرية، لأن حرية الفكر تعني التجاوز مع من خلق الإنسان.

تعني الاعتداء على أمر الله بالعبادة، والله هنا هو الذي صنع الكون ولم يُثبت غيره في صناعة الكون.

إن الذين ينادون بحرية المعتقد هم أنفسهم لا يطبقونه، فهم يحاربون الإنسان في التمسك بمعتقده الصحيح من أجل باطلهم، ومن أجل دنياهم، فهم يرون بأن الفكر الصحيح أو بمعنى أدق الإسلام تخلفًا وتشويهًا للحياة، حتى لو كان إسلامًا لا يؤذيهم، فلماذا يحاربون المعتقد هنا؟

سنتحدث عن ذلك بالتفصيل في حديثنا عن الحرية في الفصول القادمة من هذا الكتاب، وسنعرف كذلك كيف أن الفكر والفعل مرتبطان ببعضهما، ولا يمكننا الفصل بينهما.

لذلك أقرب تعريف للحرية هو:

اختيار الإنسان لأفعاله ومعتقداته دون الاعتداء أو الإضرار بأحد.

لماذا قلنا أحد و لم نقل إنسان آخر؟

لأن الإنسان هنا قد يمتنع من فعل ما أو اعتقاد ما بحجة الإضرار بكائن حي آخر، حيوانًا، أو نباتًا، و لو لم يكن إنسانًا، وعلى ذلك لنفهم بأن العبادة هي كذلك لتنظيم الحياة ليستطيع كل كائن حي وليس كل إنسان فقط على العيش في هذه الدنيا وفق

ضوابط تضمن استمراريته إلى أن يريد الله أو يرث الأرض ومن عليها، و من ثم يصل بذلك إلى الجنة.

هنا سؤال:

لماذا تكلمنا عن الحرية بين البشر والعبادة أصلًا هي علاقة بين المعبود والعابد؟

ذلك لأن كل حياة الإنسان وتصرفاته في الدنيا وعلى هذه الأرض لا بد وأن تكون بمراد الله، ومنها الحرية بين الناس، وتعاملاتهم مع بعضهم.

إن العبادة هي مفهوم شامل لكل ما يفعله الإنسان على هذا الكون، فالله موجود في كل مكان، وكل شيء هو ملكه سبحانه، ولا بد أن نسير في ملكه بمراده، و نستخدم ما صنع بمراده، وبالتالي عبادته ستحضر في كل مكان يذهب إليه العبد.

في داخل الأرض وخارج الأرض.

إنها قوة الله سبحانه على هذا الكون الذي ملكه فاستحق كل ما فيه.

هنالك تساؤل :

هل العبادة شاقة؟

هل الإنسان لا يريد العبادة لأنها شاقة وفوق قدراته؟

نعلم جيدًا بأن من وضع العبادات هو الله الذي خلق الإنسان الذي سيؤدي هذه العبادة، وبالتالي هو أعلم سبحانه بما يناسبه.

لو تأملنا في بعض قوانين الدنيا لوجدنا أنها تتغير بين فترة وأخرى لأن من وضعها يكتشف صعوبتها على البشر لعدة أسباب، لكن ذلك لا يكون في العبادة لأن الله هو الذي خلق الإنسان وهو سبحانه أدرى بما يناسبه، ولذلك نجد كيف أنه يخفف على الإنسان العبادة في بعض الأحوال كالسفر والمرض، بل و يعذر الأنثى عن أداء بعض العبادات في أثناء ما يصيبها من تغيرات، وكل ذلك يدل على أن هذه العبادات وُجدت بما يناسب الإنسان، وأن التقصير في أدائها ليس بسبب عدم القدرة لكن بسبب الهوى.

بسبب وساوس الشيطان.

و الشيطان هنا هو الذي يتواجد في داخل الإنسان.

يوسوس له بترك العبادة.

بفعل الشر.

إن الله طرد الشطان من الجنة عندما عصاه و لم يسجد لآدم؛ فأرد ذلك الشيطان أن يثني البشر عن العبادة حتى يضللهم.

هنا سؤال:

من هو الشيطان؟

لماذا تركه الله؟

كيف تريدني أن أصدق ذلك؟

الشيطان خلقه الله من نار وأمره أن يسجد لآدم كما ذكرنا، فرفض، فأخرجه الله من الجنة بسبب رفضه ،فغضب الشيطان وتوعد ابن آدم بالغواية، ولذلك هو يوسوس له حتى يكون ضالًا مثله، و تركه الله ليكون ذلك ابتلاءً للناس.

أما مسالة الصدق هنا في الغيبيات فهي بحاجة أولًا إلى إيمان بالله، و لو تحقق ذلك الإيمان لكان التصديق .

لن يتم تصديق أمور الغيب دون إيمان.

دون اعتقاد بأن الله هو الرب الحق، فكيف يصدق تلك الغيبيات من ينظر إلى كل ذلك الإبداع المادي الذي أمامه في هذا الكون و رغم ذلك لم يؤمن بمن صنعه؟

إنها ابتلاءات وصراعات ليثبت العبد فيها، وقد تكلمنا عن تلك الابتلاءات، وسيثاب العبد طالما أنه أراد أن يحقق العبادة، وأن يجني ما بعد تلك العبادة.

هنا أيضًا تساؤل متعلق بالغيبيات :

لماذا الغيبيات ؟

الشيطان، والملائكة، واليوم الآخر، والصراط، وغير ذلك؟

لماذا جعلها الله عز وجل غيبية ولم يجعل كل شيء بشكل ظاهر؟

للإجابة هنا لا بد لنا أن نعلم بأن أمور الغيب هي أمور أخفاها الله عنا لحكمة، ورغم ذلك جعل لبعضها دلالات قد تكلمنا عنها في هذا الكتاب وأخفى البعض الآخر، و لنعلم هنا بمسألة مهمة سواءً هنا أو في الحديث عن الخوارق؛ والتي قد يقال عنها بأنه لا يصدقها عقل وهي أن كلامنا وقياساتنا كبشر هي بمقياس هذا الكون، وعندما يكون الكلام لم هو خارج هذا الكون فالأمر يختلف بالتأكيد؛ لأننا سنكون حينها بحاجة إلى فهم وإلى نظريات من خارج هذا الكون، و بالتالي هنا أو في كثير من أمور ينبغي لنا التسليم، لأننا باختصار لا نستطيع أن نقيس

ونبحث بعقولنا بل بنظريات من هذا الكون، وبالتالي قد نقف عاجزين عند بعض أمور، وقد تكلمنا عن ذلك وسنتكلم أيضًا في ما تبقى من هذا الكتاب، طالما أن الله الذي صنع هذا الكون وأوجد الدين ويملك قدرات تفوق كل شيء في هذا الكون -هو لب حديثنا في هذا الكتاب والذي نتحدث فيه عن الدين والحياة بفلسفة حقيقية- فهو الموجد و الصانع للدين والحياة كما ذكرنا، فكان التسليم، لأننا ببساطة لا نستطيع أن نفكر إلا بقوانين ونظريات كون نعيش فيه، فهذه حدود علمنا، وعلى ذلك لا بد لنا أن نرضى بما أخفاه الله عنا طالما أننا عبدناه.

إنها أمور للابتلاء طالما أقررنا بوجود الصانع.

قبل أن نختم هنالك تساؤل

يكثر الحديث عن الابتلاءات حتى أن هنالك من اتخذها عذرًا في الكثير من الأمور، فما حقيقتها؟

ما مفهومها؟

الابتلاءات هي اختبارات، وقد تكون في الخير أو الشر.

هذه الاختبارات تحدث من عند الله، لكن مسبباتها موجودة في الأرض، فهي قد تكون نتيجة ظلم أحد ما لآخر.

وقد تكون عدم توفيق.

أو قد تكون كذلك توفيق من الله لينظر ماذا يفعل صاحبها.

أو قد تكون درسًا ليتعلم من خلاله ذلك الإنسان.

لننتبه لأمر مهم هنا و هو أن الناس قد لا تفرق بين الابتلاء والعقوبة، حيث أن الابتلاء يحدث مع الاجتهاد، بينما العقوبة تحدث عند الخطأ، وهذا ليس على الإطلاق، فقد يخطئ الإنسان ويبتليه الله بزيادة النعم، ولذلك فليجتهد الانسان في كل أحواله طالما أنه مازال في الدنيا.

طالما أنه مازال في دار الاختبار.

إن العبادة مليئة بالابتلاءات لكن العوض دائمًا في الصبر من أجل أن نسعد بالنتيجة، لأن من يضع الابتلاءات بالتأكيد يملك جزاء اجتيازها.

هل يستطيع الإنسان أن يعيش دون عبادة ؟

لو نظرنا إلى كل الذين يعبدون إلهًا مزيفًا لوجدنا أنهم لا يعانون مع آلهتهم، بمعنى أنهم ليس على خلاف أو اختلاف مع ربهم الذي يعبدونه، والسبب هنا لا يعود إليهم بل يعود إلى الإله، بعكس الذين ينتمون إلى الإسلام والذين قد يقصرون مع ربهم بسببهم هم لا من عند الله تعالى.

إن الذين يتخذون آلهة يعبدونها ليست بينهم و بين هذه الآله إلا شعور يريد ذلك العبد تحقيقه بين فتيه وأخرى ليشعره بالطمأنينة و القوة لتحيا روحه، وقد تكلمنا عن ذلك، وإن كانت هذه الطمأنينة مزيفة في حقيقتها إلا أن الشيطان يزينها له وبالتالي هذا الشعور هو فقط ما يريده العابد من الإله، والإله

هنا لا يريد من العابد إلا الانتماء إلى ذلك الدين الباطل أو هكذا يريد كهنة ذلك الإله.

إن العلاقة بين الرب المزيف وذلك العبد لا تقوم على أوامر يُراد منها الرقي بذلك العبد وبمجتمعه؛ وبالتالي لن يكون هنالك صدام بين العابد والمعبود هنا طالما أن ليس هنالك أوامر لبث الحياة في الفرد والمجتمعات، وإقامة العدالة، وإن كانت هنالك أوامر فإنها لا تشمل إلا جزءًا يسيرًا من حياة ذلك العبد، هذا إن كانت مُجبرة.

إن الإنسان بطبعه لا يحب التقييد حتى وإن كان هذا القيد لحمايته وللرقي به وبمجتمعه، وطالما أن تلك الأرباب المزيفة لا تقوم بذلك لأنها بطبيعتها ميتة، وإن كان منها من يأكل ويشرب، فلن يكون هنالك صدام كما ذكرنا، فكل هدفهم هو تكثير سواد معبوديهم لا أكثر.

لكن هنا السؤال:

هل يستشعر ذلك العابد أو العبد بعد كل ذلك بطمأنينة؟

هل تشعره تلك الأديان بالأمان الدنيوي؟

لماذا اتباع الديانات الأخرى يفكر أصحابها في الانتحار؟

لماذا يغريهم الإسلام بالدخول إليه طالما أنهم يملكون دينًا؟

سنجيب على ذلك لكن لنسأل قبل ذلك:

لماذا كل تلك الديانات؟

هل أوجدها الله؟

لنعلم بأن الله لم ينزل إلا دينًا واحدًا هو الإسلام، وهو الدين الذي جاء به كل الأنبياء، وإن اختلفت شرائع كل نبي منهم بحسب ما يناسب كل زمان ومكان إلى أن ختم الله بالنبي محمد ﷺ ليكون منهجه وشريعته مهيمنة على كل الشرائع، ولتكون لكل مكان، ولما بعد ذلك من زمان، إلى أن تقوم الساعة، وأن من أوجد كل تلك الديانات هم البشر.

نعم هم البشر.

ذلك أن البشر عندما جاء لهم نبي وأطاعوه كاليهود مثلًا الذين آمنوا بموسى عليه السلام، أو بمن اتبع عيسى عليه السلام من النصارى لم يستمروا في عبادة الله، وذلك أنهم ما استمروا في طاعة الله عز وجل عندما أرسل لهم نبيًا آخرًا، ولذلك كفروا بالنبي محمد ﷺ، وبغيره من الأنبياء، وسلكوا طريقًا آخرًا، فكان لهم دينهم الباطل الخاص بهم، والذي حرفه كهنتهم وقساوستهم

و غيروا شريعة أنبيائهم، و كفروا بغيرها، وبالتالي كفروا بالله عز وجل.

كذلك كانت هنالك ديانات أخرى أراد بعض الملوك من قديم الزمان، ومن أجل السيطرة على قومهم من اختراع دينًا جديدًا، ليكون عقيدة لقومهم، يقاتلوا من أجلها، ويقدموا لها أرواحهم، لأن الناس تضحي من أجل العقيدة، ومن أجل الإشباع الروحي، وتتردد لو كانت من أجل أي شيء آخر، فكان كل ملك يأتي بدينه الخاص، ويؤيده كبارات رجالات الدين في قومه، ويضفون على ذلك الدين الشرعية، وهكذا كانت الديانات.

وكذلك فعل بعض كبار القوم، وفلاسفتها على مر العصور فكانت البوذية، وغير ذلك.

إنها ديانات ما أنزل الله بها من سلطان، وطالما أن من جاء بها البشر كأديان الملوك، والامبراطوريات، أو حرفها البشر كاليهودية، والنصرانية مثلًا فلم تكن يومًا تناسب هؤلاء البشر، فأصبح من ينتمي إلى تلك الديانات يشعر بضيق شديد ما استطاع كهنة وقساوسة ورهبان تلك الأديان من إزالة ذلك الضيق، فكان الانتحار أو ترك ذلك الدين.

إنها وإن ظهرت معها قوة ملوكها وكبارات رجالاتها لم تكن قوة تبهر العباد بها.

إنها كانت قوة سوط تترك آثارًا على الأجساد لا على القلوب، ولن يظهر أثر قوة على القلوب إلا من الدين الحق، ذلك الدين الذي ترى قوته من حولك، وهنا سؤال:

لماذا خلق الله الحشرات طالما أنها غير مقصودة بعبادته؟

ما فائدة الأشجار؟

الخيول؟

الذباب؟

الفيروسات؟

الطيور؟

لماذا كل ذلك وكل تلك الكميات والأعداد الكبيرة؟

بالتأكيد ستكون الإجابة بأن لكل كائن دوره في استمرار دورة الحياة، وأن كل شيء خلقه الله عز وجل هو من أجل استقامة الكون.

نعم.

إن كل شيء في هذا الكون سُخر لأداء دوره في هذه الحياة حتى البكتيريا، بل وحتى السباع في الغاب وهي تفترس ضحاياها لتمضي دورة الحياة.

إن الذباب قد يغير نظرية، والفيروسات قد تدمر بلد بالملاريا، والخيول وسيلة مواصلات تريح الإنسان، وتختصر له المسافات والأميال.

إن وجود كل تلك الآيات من حول الإنسان هي لتجعله يتفكر ويطمئن، فهو عندما يشاهد كل تلك الكائنات وكل تلك الدقة في الخلق وحياة كل مخلوق، وأنها ليست من أجل البقاء فقط بل ومن أجل سير الحياة، يطمئن بأن هنالك قوي صنع كل ذلك ينبغي له أن يعبده، وأنه بحاجة لذلك القوي.

بحاجة إلى ذلك الرب حتى يرحم ضعفه.

حتى يدخله الجنة .

بل وحتى يرزقه في الدنيا ويكرمه.

سيعرف بأن الله غني، وأنه ليس بحاجة أحد، وأن مصيره بيد الله لا بيد غيره أو بيد شريك آخر، وأن كل ما حوله ممن يدعي القوة باطل.

وليعلم كذلك ذلك الإنسان بأن عبادته لربه لن تكون أبدًا من أجل مقابل يريده ذلك الغني، أو أن ذلك الغني بحاجة إلى أن يشعر بأنه يُعبد، لا.. بل هي لإشباع حاجة العبد، وطمأنينته بأنه يتبع رب قوي قادر، ولن يشبع حاجته رب ضعيف، لذلك لا بد له أن يلجأ للقوي الذي أثبت قوته لإشباع روحه.

إن في هذه الحياة حاجات ومتطلبات كثيرة يبحث عنها الإنسان وكل الكائنات الحية، ما بين طعام وشراب ليشعروا بالراحة على هذه الأرض التي يقيمون عليها، وقد تكلمنا عن ذلك، فيبحثون عن عمل لجلب المال أو طعام لأكله لقضاء تلك الحاجات.

قد يحسن الإنسان لعائلته، من والديه، وإخوانه، وزوجته، والأبناء، والأقارب لينال حاجته من العاطفة.

قد يبحث عن الترفيه، والتسلية لينال حاجته من السعادة.

قد وقد وقد.. إنها متطلبات كثيرة فيبحث عن معين.

قد يلجأ إلى الله في مساعدته لتحصيل الحاجات، وفي نفس الوقت قد لا يلجأ في تحصيل تلك الحاجات إلى أحد فيعتمد على

نفسه لتحصيلها، وقد تكون تلك الأسباب مشروعة، وقد تكون غير مشروعة.

قد ينجح ويحصل حاجته، لكنها تبقى مادية لم تشبع روحه.

يبقى جائعًا وإن وجد الطعام والشراب والعاطفة فيحس بأن في داخله شيء لم يرتوي بعد.

لم يُشبع.

يعيش في ملل رغم كل الحاجات المتوفرة أمامه لقضاء وقت سعيد، لكنه الإحساس بالجوع في داخله، والذي لن يُشبعه ما يملك، وإن شبع بها يومًا فأين له استمرارية ذلك لأنه شبع مؤقت لن يستطيع كل ما حوله تحقيق الاستمرارية لذلك الشبع.

إن الإنسان بطبعه كائن عاطفي وحساس، والعاطفة التي ينالها ممن حوله في هذه الدنيا قد تحل له الكثير من الأمور مع المال والطعام والشراب والسعادة، والذي هو في حاجة ماسة لها لكنه رغم ذلك لن تُشبع تلك العاطفة روحه بسبب عدم الراحة النفسية الكاملة، والراحة النفسية الكاملة هنا لن يجدها وإن بحث عنها إلا عند القوي الذي يعرف أنه سيجد عنده ما يُشبع روحه ويعينه

على صعوبات الحياة، بل ويضمن له المستقبل الحقيقي فيقتنع بحاضره.

عند القوي الذي سيسهل له الطريق إلى توفير كل الحاجات المادية والروحية، أو يعطيه بدائل تعينه أو تصبره إن حُرم بعضًا منها، وهو سيثق في تلك البدائل طالما أنها من القوي الذي يعرف أن بيده مقاليد الأمور، وبالتالي سيحصل على الأمان، وسيضمنه مع الاستمرارية، وتلك الاستمرارية لن يأتي بها أي سبب دنيوي مهما كان أو أي عاطفة مهما كانت.

إنه كائن خُلق لأن يكون بقرب من خَلقه للعبادته، ومن خُلق لشيء لن يناسبه أي شيء آخر مهما كان، ولن يستطيع أن يعيش دون ذلك الشيء.

إن الحاجة هي افتقار، وهي دلالة ضعف، وهي التي دعت كل الكائنات الحية في هذا الكون إلى الحركة البحث والدب على الأرض، وهذه أسباب بالتأكيد لتحصيل الحاجات، ولذهاب بعض من ذلك الافتقار، ولن يُذهب كل ذلك الافتقار إلا قوة داخلية، ولن تستمد كل الكائنات في هذا الوجود قوتها إلا من قوي، والقوة هنا لتشعرنا بالشبع وبالأمان كما ذكرنا، وبالرضا

وباستمرارية ذلك الشبع، ولن يُشعره بكل ذلك إلا الله، فكانت العبادة.

إن الشبع هنا يعينه حتى في مواجهة مصائب الحياة.

حتى لأن يغلب أي قوة أخرى تواجهه مهما بلغت سطوتها.

إن الحياة بطبيعتها مليئة بالخير والشر، وقطعًا وجود الشر ليس بسبب سوء في صنع الصانع.. لا.

إنها للابتلاءات لأننا في دنيا ابتلاء، وإن الشبع هنا معين لمواجهة كل ذلك كما ذكرنا، وإن استسلام المرء أمام الشر هو بسبب فقدان ذلك الشبع الروحي، فكان ما كان من التسخط على أقدار الله، بل وفي إنكار وجود الله الذي لم يستطع إزالة الشر كما يدعون معاذ الله.

إننا بحاجة إلى أن نفهم العبادة جيدًا، وقبل ذلك أن نفهم الحياة.

هنا قد يحضر تساؤل:

كيف نحقق إشباعًا روحيًا ونحن نخاف؟

هل خُلقنا لنخاف من الله؟

كيف تكون حاجتنا عند من نخافه؟

إن الذي يخاف من شيء لا يحبه، بل ولا يريد أن يلتقي به أصلًا فكيف يكون ذلك؟

لماذا لا يُشعرنا الله بالأمان؟

لماذا نخاف من السقوط في الحياة؟

نخاف من الموت؟

من القبر؟

من عذاب النار؟

لماذا حياة مليئة بالخوف؟

بداية لنعلم بأن الخوف نعمة..

نعم، هو كذلك.

إنه لمن الصعب أن نقارن بين خوفنا من أي شيء في هذا العالم وبين خوفنا من الله لأنهما لا يستويان.

إننا في علاقاتنا مع هذا العالم نحتكم إلى نظريات دنيوية؛ لكنها بالتأكيد لن تناسب علاقاتنا مع الله لأنها علاقة بين فرد في الدنيا هو العبد و بين رب كان قبل الكون وهو أقوى من كل الكون، فلا تحكمه معادلات ونظريات هذا الكون.

إن الخوف صفة رذيلة، وبالتالي هي كذلك بحسب نظام هذا العالم لكنها ليست كذلك في علاقاتنا مع الله.

لا تقاس كذلك مع الله عز وجل.

إننا نخاف في الدنيا فنهرب ممن نخاف منه.

نتركه ولا نعود إليه، لأن العودة تعني الهلاك لكن الأمر ليس كذلك مع الله.

إننا عندما نخاف من الله نذهب إليه.

ندعوه.

إن الخوف هنا نعمة لنا كما ذكرنا بدايةً، لأنه يزيد من تمسكنا بالعبادة، وبالتالي من فرصة نجاتنا من النار التي نخاف من أن نقع فيها في اليوم الآخر.

إننا في الدنيا نخاف من أمور فنجتهد فيها كخوفنا من الرسوب في اختبارات المدرسة الذي يدفعنا للمذاكرة، فهل قال أحد بترك الدراسة لأنها تقودنا إلى الخوف؟

ألم يكن الخوف هنا فيه خير لنا؟

تسبب في نجاحنا؟

إن الخوف من الوقوع في النار، والخوف من عذاب القبر يصاحبه إقبال إلى العبادة؛ وبالتالي إقبال على الله من أجل النجاة.

إن الخوف الدنيوي يجعلنا نجتهد للنجاح أو للهرب ممن سبب لنا الخوف من أجل الشعور بالأمان، بينما الخوف من الله يجعلنا نعود إليه ونذهب إليه بالعبادة والالتجاء ليرحمنا، وهذا بالضبط هو الفارق بين الخوف الذي يصيبنا في الدنيا وبين الخوف من الله، ولذلك كان الخوف من الله خارج معادلات و نظريات هذا الكون.

هل هنالك اتصال بين المعبود والعابد؟

بدايةً ما هو الاتصال ؟

ما مفهومه ؟

الاتصال هو المشاركة والمفاهمة.

هو عملية تفاعلية لنقل معلومات، ورسائل، وأفكار بين اثنين أو أكثر.

بل قد يكون بين المرء ونفسه.

إن الاتصال بين العابد والمعبود لهو أمر ضروري أن يكون، فقطعًا لن تكون هنالك عبادة دون اتصال.

إن الله الرب الحق يستطيع وبقدرته أن يحقق اتصالًا مع عابده، لكن كيف يتحقق ذلك للعابد؟

كيف يستطيع العابد أن يتصل بربه؟

تحدثنا في السطور السابقة عن العبادة، وذكرنا بأن كل شيء في هذا العالم يدلنا على وجود الصانع.

إن الإقرار بالوجود هو الخطوة الأولى لمحاولة الاتصال بالصانع، وعندما يعرف ذلك الإنسان بأن هنالك صانعًا للكون ويستدل عليه فحتمًا سيحاول أن يتصل بالصانع، وسيبحث عن الوسائل لذلك، والبحث هنا قد يكون من أجل العبادة الشعور بالأمان الروحي، أو من أجل الاطلاع.

إن الذين يعبدون آلهةً باطلة فإنهم قد تفرض عليهم العبادة، وقد يذهبون للمعبد، أو يستمعون لكبار علماء الدين في ذلك المعبد، فيتعرفون على تفاصيل دينهم، فيأخذون أحكام دينهم إن كانت هنالك أحكام، أو يلتجئون لتلك الآله بالدعاء وبطلب المغفرة ثم يخرجون.

في خروجهم قد يستجيبون للأوامر، وقد يتركونها لأنهم لن يشعروا بوجود الإله معهم في حياتهم، وهنا يُفقد الاتصال لأنهم لا يرون أو يشعرون بذلك الإله إلا في المعبد، رغم أن ذلك الشعور ليس كاملًا في نفوسهم، أو بحضور علماء ذلك الدين الباطل، والعلماء هنا قد يأخذون دور الرب، وعندها قد يصل الأمر إلى استغلال العباد.

أما في الأديان السماوية المحرفة، أو بمعنى من حرف بعض شرائع الإسلام كاليهود والنصارى، لأن الدين عند الله الإسلام فإنهم في بداياتهم يستدلون على الله من آياته أو رسله، لكنهم يُخدعون من تلك المعابد، والكنائس التي من حولهم بعد أن حُرفت فلا يصلون إلى الله بالشكل الصحيح، فيميلون عن الحق.

إنهم ورغم ذلك يعبدون الله في المعبد، ويتقربون من علماء ذلك المعبد أو الكنيسة، فيستغلونهم في العبادة وغير العبادة.

وعندما يخرجون من المعبد قد يفعلون عبادات خارج المعبد، لأنهم يعرفون أن الله موجود، لكنه اتصال ضعيف لعدم ملائمة ذلك الاتصال وتلك الأوامر للعقل، لأنها أوامر ومناهج محرفة باطلة، لا تستند إلى عقل، وإن استندت بعضها فإن المعبد أو الكنيسة لا تطلبها منهم إلا على استحياء، فلا يلتزم بها إلا رهبانهم وقساوستهم وأيضًا على استحياء أو بتقصير، وهكذا هو الباطل، لكن ماذا عن الدين الحق؟

قد يستدل أهل الحق على وجود الله من خلال آياته أو رسله، فيثبتون على الحق، لأنهم اتبعوا المنهج الصحيح، ولم يحيدوا عنه.

مما سبق نستنتج أن هنالك اتصالين بين المعبود و بين العابد .

إن الصانع الحقيقي أرسل رسلًا إلى البشر ليكونوا هم من يبلغون هذا الدين.

ليبينوا لهم المنهج، وهؤلاء الرسل هم من البشر، تلقوا تعاليم وأوامر الرسالة عن طريق الملائكة، و إن كلم بعض الرسل الله تكليمًا، فكان هذا الاتصال الأول بين الله وبين عباده.

ثم واصل هذا الاتصال، أو لنقل بينه علماء شرحوا رسالة الأنبياء للناس، وهذا الشرح دون أن يزيدوا فيه شيئًا أو ينقصوا منه، بل ولا يخافون في نقله لومة لائم، ويصبروا على ذلك.

إنهم ناقلون لا مشرعون أو مستفيدون كرجالات الدين في تلك الأديان الباطلة، و الذين اتخذوا ذلك تجارة وفائدة، وإن فعلوا ذلك فلهم من الله عذاب أليم، لكن ماذا عن الاتصال الثاني؟

اتصال العابد بربه؟

إن اتصال المعبود بالعابد هو اتصال أوامر.

اتصال قوة.

بينما اتصال العابد بربه هو اتصال طلب وضعف، فكان لا بد له من إشباع لذلك العبد، فكان اتصالًا مباشرًا بين العبد و ربه، وإن لم يرى الله.

إنه طلب دعاء وغفران، فلم يجعل الله واسطة اتصال للوصول إليه.

لم يجعل ذلك ليتحقق ذلك الاشباع الروحي للعبد، والذي قد تكلمنا عنه.

نعم إن الإنسان هنا عندما يجد أنه يستطيع الوصول إلى الرب فإنه بذلك يحقق الاطمئنان، و يحقق إشباعًا روحيًا فيعطيه قوة.

قوة ليستمر، فالقوة هنا لا بد أن يحققها بهذا الاتصال لتبقى روحه، فهي بحاجة إلى من يحييها تمامًا كالجسد، وقد تكلمنا عن ذلك أيضًا.

إنه اتصال بلا واسطة، لأن الإسلام ليس كغيره من ديانات الباطل، والتي تسيرها عصابات تقول عن نفسها بأنهم رجال الدين أو حراس الرب فيستغلون حاجات البشر.

إن الاتصال بالله يظهر كذلك في العبادات التي جعلها الله على عباده لتقوية ذلك الاتصال، بل أن تلك العبادات هي اتصال بحد ذاته، ولذلك جعلها الله في حياة العبد اليومية ليكون العبد بقرب ربه على الدوام لتقوى روحه، ولذلك نرى المسلم سعيدًا في

حياته حتى وهو يعاني من مصاعب الحياة اليومية بسبب ذلك الاتصال، فهل يستطيع أن يحقق ذلك أرباب الباطل؟

إن أتباع الديانات الباطلة عندما يريدون أن يستمدوا قوة ويبحثوا عن ربهم بين تلك الديانات فإنهم لا يجدوه لأنها أرباب باطلة وإن كانت أديان سماوية محرفة فإنها ستسلك طرقًا خاطئة للوصول إلى الرب، وعندها لن يشعروا بأي إشباع روحي.

هنا تساؤل آخر:

لماذا لم يجعل الله اتصاله بعباده مباشرًا دون رسل يبلغون؟

لنعلم بأن وجود الرسل هو لتبليغ الدين ولتوضيح المنهج.

نعم، لتوضيح المنهج، حتى يكون مفهومًا للجميع بطريقة صحيحة، وبنفس الدرجة، فلو نزل الدين على كل إنسان لوحده والله قادر على ذلك لكان الهوى حاضرًا عند البعض، ولفهموا الدين كل بطريقته، ولكانت الاختلافات، وهذا للأسف موجود حتى ونحن ننهل المنهج من نبي واحد هو خاتم الأنبياء محمد ﷺ.

إننا نخطئ عندما نقول بأن الاختلافات رحمة ،فليس فهم كل إنسان لمنهج الدين بطريقته رحمة.

إن الرحمة تكون عندما يأتي بها الله عز وجل، فيكون تيسيرًا على العباد بسبب ظرف أصابهم، وإننا لنجد الدين يقول به في الكثير من أمور العبادات، أو أننا نجد ذلك في مسألة ما تقتضي أكثر من قول فكان التيسير.

إن الخلافات ولا نسميها هنا اختلافات؛ أوجدت مسلمين متنازعين لا يرحم أو يعذر بعضهم البعض.

نعم، كان الخلاف، فصار التنازع، فكانت الفرق والتي مالت وزاغت عن منهج الحق.

نعم، قد نفهم مسألة بطريقة خاطئة لكننا نعود لو اتسعت صدورنا للدليل والفهم الصحيح للمسألة، وإنزالها المنزل الشرعي، وسيتحقق ذلك فقط لو اتبعنا منهج نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ذلك الذي جعله الله وهوالصانع الحقيقي للكون رسوله إلى الأرض، ولو نظرنا كذلك إلى بعضنا بعين الرحمة.

أليس ذلك هو عين الصواب؟

هل الأخلاق تغني عن العبادة؟

سؤال مهم، وتكمن أهميته بسبب أن الكثير يراهن على أن الالتزام الأخلاقي يغني عن الالتزام الديني؟

بدايةً ما هي الأخلاق؟

ما مفهومها؟

الأخلاق هي الخير، أو لنقل بأن الأخلاق هي كل قول أو فعل حسن.

من التعريف السابق قد نشبه الأخلاق بالعبادة، لأن العبادة هي الخير بحد ذاته، فهل نقول هنا بأن الأخلاق تغني عن العبادة؟

بمعنى لو تركنا العبادة وتوجهنا إلى الأخلاق؛ هل نحقق المقصود من وجودنا على الأرض؟

أيهما أفضل عبادة دون أخلاق، أم أخلاق دون عبادة؟

عندما نقول بأن الأفضل عبادة دون أخلاق فإننا هنا نحقق الهدف الذي وُجد الإنسان من أجله على الأرض، وإن كان عدم

وجود الأخلاق قد تفسد عليه النجاة من عقاب الله، ولو كان هذا العقاب قليلًا، لكنه رغم تقصيره الأخلاقي حقق الهدف الرئيس من وجوده على الأرض

لماذا لا نقول بأن الأخلاق دون عبادة أفضل طالما أن الله غفور رحيم؟ وطالما أن الأخلاق تسمو بصاحبها وتساهم في جمال الحياة الدنيا؟

لماذا لا نقول أن الأخلاق أفضل وتغني عن العبادة طالما، أن الأخلاق هي كل قول أو فعل حسن، وأن كل قول أو فعل قبيح مهما كان تبريره، ومهما كانت الدوافع التي أدت إلى فعله لا يعتبر من الأخلاق؟

هل من المعقول أن نقول بأن الدين أفضل وهو يبيح بعض الأفعال السيئة في بعض الحالات؟

هل من المعقول أن الدين يقول بأن الكذب؛ والذي هو عادة سيئة، يجوز أن نفعله عند الإصلاح بين اثنين؟

الأخلاق ترفض الكذب مهما كانت الدوافع، ألا يدلنا ذلك على أن الأخلاق أكثر سموًا؟

لماذا الدين يجيز أحيانًا بعض التصرفات دون إضرار، والأخلاق لا ؟

بدايةً وبعد هذا الكلام قد يقول قائل بأن الأخلاق أفضل معاذ الله، وهذا الأمر خاطئ .

نعم نريد أن نعيش في عالم مليء بالخير ولا يوجد فيه شر، ولا نريد أن نفعل الشر لأي سبب من الأسباب، لكن أحيانًا يكون للواقعية أمر آخر.

نعم فأحيانًا قد نفعل الخير لكن هذا الخير قد يُحدث مشكلة كبيرة جدًا، فمثلًا الكذب صفة قبيحة، ويندرج تحت الشر، هكذا يقول الدين، وهكذا تقول الأخلاق .

الأخلاق ترفض الكذب بأي حال من الأحوال، وكذلك الدين يرفض الكذب بأي حال من الأحوال.

الدين يجيز أحيانًا، وفي إطار ضيق الكذب إذا كان بغرض الإصلاح دون ضرر كما ذكرنا، فهل هذا الأمر هنا يعتبر سيئًا؟

الأخلاق تقول نعم، لأن الكذب صفة سيئة، ولا يحق استخدامها بأي حال من الأحوال.

لننظر لنتيجة الكذب والصدق في هذه المسألة:

لو أن شخصين اختلفا، و هجرا بعضهما، كيف سيكون التصرف من قبل الدين، وكذلك من قبل الأخلاق؟

لنبدأ بالأخلاق، ونرى كيف لو أرادت الأخلاق أن تصلح بينهما:

ستقوم الأخلاق بنقل الأحاديث حرفيًا للطرفين، وهما في حالة غضب؛ بسبب أنه لا يحق لها الكذب مهما كان؛ وستكون النتيجة زيادة وتطور الخلاف بين الطرفين، وقد يؤدي ذلك للتشابك بالأيدي بينهما.

لننظر كيف سيتصرف الدين:

سيذهب الدين إلى الطرفين؛ وسيلطف الأجواء بينهما؛ ولن ينقل الكلام السيء الذي قاله كل منهما عن الآخر؛ بل سيستبدله بكلام جميل لم يقله أحدهما عن الآخر؛ وهذا كذب، لكنه لتحقيق مصلحة، وهنا قد يتم الصلح، وتحل القضية، و يعود الود، والود هنا معناه أن تعم المحبة المجتمع وتذهب الشحناء.

الأخلاق هنا شحنت المجتمع؛ بينما الدين قام بتلطيف الأجواء وإن قام هنا باستخدام صفة سيئة بضوابط دينية، ودون إضرار، لا بضوابط من هب ودب، والضابط هنا أن الكذب سيء، لكنه

هنا لن يسيء لأحد، بينما العراك الذي سينتج من تفاقم العلاقة بين الشخصين هنا سيؤدي إلى مصائب أكبر هي أكثر سوءًا، بينما نجد أن الأخلاق امتنعت عن فعل السيء حتى لو حدث الأكثر سوءًا، ولذلك أحيانًا قد نحتاج لصفة سيئة؛ ليس لعمل السوء لكن للحصول على الخير، وهذه الصفة تهون في سبيل حل مشكلة ربما تكون عواقبها وخيمة وتجلب الكثير من الشر إن استمرت.

كذلك قد نستخدم يومًا صفة الخير استخدامًا سيئًا فيحدث الشر.

إذًا الدين تعامل بواقعية، والواقعية مهمة جدًا، لكن قبل أن نقول بأن الدين كسب الجولة هنا سؤال:

كيف نحكم على الفعل بأنه خير أو شر؟

هل لقبوله بين الناس؟

هل للشعور بالذنب، وتأنيب النفس دور في تحديد ذلك؟

هل يعود للهوى؟

هل للنتيجة دور، بمعنى أن بداية الفعل لا تحدد ذلك طالما أن النتيجة هي خير؟ وهنا هل يمكننا القول بأن الغاية تبرر الوسيلة؟

ما هو الخُلق؟ وما هو سوء الخُلق؟

كيف نحدد أخلاقيات المجتمع لو قلنا بأن الأخلاق شيء نسبي يختلف من شخص إلى آخر، فما تقبله أنت أو تعده من الأخلاق قد أرفضه أنا؟

مما سبق نجد أننا لو تركنا لكل شخص تحديد الخير والشر لما كان هنالك اتفاق، ولصنف كل شخص الأخلاق حسب هواه، ولذلك قد نقول بأن تعريف الأخلاق هو كل فعل عدته أي منظومة دينية أو مجتمعية من الأخلاق.

هنا سؤال آخر:

ألا يمكن بأن تكون هذه المنظومة سيئة، وبالتالي قياسها للأمور سيكون سيئًا كذلك؟

إذًا الأخلاق هي كل قول أو فعل عده الدين الصحيح من الخير، واخترنا الدين الصحيح هنا لأن قوانينه حددها من خلق الكون الذي نعيش فيه.

و هنا نقول بأن الدين كسب الجولة أيضًا.

هنالك مسألة أخرى، وهي أن الأخلاق يفعلها الإنسان من تلقاء نفسه، بينما الدين يجبر الإنسان على الأخلاق، فلا يفعلها إلا

مكرهًا، لماذا لا نقول هنا بأن من يفعل الخير خلقًا هو أصدق ممن يفعله تدينًا؟

للإجابة على ذلك لنسأل:

هل من يفعل الخير تدينًا يفعله بدافع الخوف من الله؟

بالتأكيد نعم .

ألا يمكننا أن نقول بأن من يفعل الخير خُلقًا قد يفعله بدافع الخوف أيضًا؟ وذلك بأن يخاف من الناس أو من تأنيب ضميره؟

أيهما أولى بأن نخاف؟ أمن الله أم من الناس والضمير؟

لماذا يلتزم الإنسان بالأخلاق؟

في الدين هو ينتظر الجزاء من ربه، لكن ماذا عن الذي يفعلها خُلقًا؟

أين المقابل الذي سيجنيه؟

احترام الناس له؟

راحة الضمير؟

هل الجزاء المعنوي يوازي المادي؟

إذًا فالأخلاق تدينًا أصدق تأثيرًا مما لو كانت خلقًا.

هنا تساؤل:

قد يقول قائل بأن القانون يستطيع أن يردع بالعقوبات من يسيء الأخلاق، وهذا لا يجعلنا نحتاج كثيرًا للدين.

لنسأل:

هل صحيح أن القانون يستطيع على ذلك؟

على ضبط الأخلاق في المجتمع، وتنفيذ كل العقوبات؟

بالتأكيد لا، ولن يستطيع، لأن القانون بحاجة إلى إثبات، فهل ستُثبَت كل الأخلاق السيئة، أو كل أعمال الشر؟

خاصة الشر الباطن؟

ثم هنالك نقطة أخرى، ماذا ستكون العقوبات؟

هل السجن خُلق حسن؟

هل ضرب إنسان لردعه خُلق حسن؟

هل التعذيب خُلق حسن؟

هل حرمانه من الحياة خُلق حسن؟

هل قطع عضو من جسمه خلق حسن؟

و أنا جئت بأمثلة هنا لعقوبات بعضها من الأنظمة، وبعضها من الدين، لأن ليس كل العقوبات يقر بها الدين.

إن العقوبات بميزان الأخلاق هي أعمال شر لتحقيق مصلحة، فكيف يستخدم الأخلاق هذه العقوبات؟ وهو يصنفها كأعمال شريرة ؟

إن الدين والدين هنا دين الصانع؛ هو فقط من يستطيع أن يعاقب سيء الخلق لثلاثة أسباب:

1- أن الصانع وبقدراته يستطيع الإحاطة بكل الأخلاق السيئة التي حدثت، وبالتالي المحاسبة عليها، وإن لم تُكتشف في الدنيا ففي الآخرة، و هذا رادع كبير للناس.
2- أن العقوبات التي ستنفذ بحق من قام بعمل سيء لن تصنف في نظام الدين على أنها أعمال شر طالما أنه يقول عنها أنها من أجل تحقيق مصلحة كما فعل في استخدام الخلق السيء وهو الكذب من أجل الإصلاح.
3- أن الدين لن يستخدم عقوبات لا إنسانية أو حتى أن يكون القصد منها التعذيب لا الردع؛ لأن من شرعها هو الرحمن الرحيم.

سؤال آخر :

هل من يلتزم بالأخلاق دون الدين هو إنسان خلوق؟

بالتأكيد لا.

مثلًا لو كان هنالك إنسان سيء مع أهله لكنه خلوق جدًا مع بقية البشر؛ هل نقول عنه بأنه إنسان خلوق؟

تمامًا، فالذي له خُلق حسن مع كل الناس لكنه لا يلتزم بدينه هو غير خلوق؛ لأنه ولو ألتزم بأخلاقه مع الجميع فهو بتركه للدين قد ساء خُلقه مع من أحسن إليه وهو الله عز وجل.

قد يقول بأنه لا يؤمن بأن الله هو صاحب فضل عليه فكيف يرد الإحسان بإحسان؛ وهو ليس بإحسان؟

حسنًا، أليس من الأخلاق أن تبحث عن من أحسن إليك لترد الإحسان؟

هل وجدته؟

ولذلك لن تكون هنالك أخلاق بعيدًا عن الدين.

كذلك لنعلم هنا بأن الدين هو من يزرع فيك تمام الأخلاق، لأن الإنسان بتكوينه هو إنسان ناقص وليس بكامل، فلا يوجد إنسان على هذه الأرض جمع الكمال إلا نبينا محمد ﷺ، ولذلك ما نجده من بعض البشر من سوء خلق في أمر ما، أو في وجود صفة

أخلاقية سيئة؛ هو نتاج لذلك الشعور بالنقص في الأمر الذي ساءت أخلاقه فيها، ولذلك من الصعب أن نجد إنسانًا يجمع تمام الأخلاق، وعلى ذلك سعى الدين إلى أن يصل بالإنسان إلى درجة عالية من التمام الأخلاقي بتلك الأجور التي جعلها لمن يحسن خُلقه في قضية وأخرى.

الفصل الثالث

صراع الدين والحياة

بعد أن تكلمنا عن فلسفة العبادة، وذكرنا بأن الذين يعبدون إلهًا مزيفًا لا يعانون مع آلهتهم، بمعنى أنهم ليسوا في صراع أو اختلاف مع ربهم الذي يعبدونه، وقد بينا أسباب ذلك، وذكرنا كذلك أنهم يواجهون صراعًا داخليًا مع أنفسهم، وكذلك الذين ينتمون إلى الإسلام، والذين قد يقصرون مع ربهم، فهم كذلك في صراع، فهل يدلنا ذلك على أن هنالك صراعًا بين الله الرب الحقيقي وعباده؟

بمعنى :

هل هنالك صراعًا بين الدين والحياة؟

وهل الصراع هنا بسبب عدم تناسب الدين مع الحياة؟

هل لأن فرائض الدين لا تناسب الإنسان و لا الحياة؟

هل يعطل الدين بهذا الصراع الحياة عن التطور؟

تحدثنا من أن الله هو الخالق المستحق للعبادة، وعندما تكلمنا في الفصل السابق عن فلسفة العبادة علمنا من أن الإسلام هو الدين الحق لأنه دين الصانع الحقيقي للكون.

لنعلم بداية بأن الدين هو المظلة التي ينتمي إليها أتباع رب ما للعبادة، وأن هذه المظلة عبارة عن عقائد ومعتقدات قد يكون تحتها أوامر، والأوامر هنا تكون خاصة بطقوس عبادات هذه الديانة، وقد تخرج لتشمل خصوصيات البشر، وخروجها هنا هو مكمن الصراع الذي يقولون عنه.

إن الدين هنا عندما يخرج من المعبد إلى حياة وخصوصيات البشر ويفرض الأوامر فهذا يدل على قوته وشموليته؛ فقط عندما تتوافق تعاليم هذا الدين وأوامره مع الحياة، والتوافق هنا ليس معناه أن نتوافق نحن وإن كان سيوافقنا لو كنا محايدين في تنفيذ هذه الأوامر؛ لكن أن نترك الهوى ونرى تأثيره على الحياة؛ لأن نتيجة التوافق هنا سينعكس أثره علينا بتوفير حياة طيبة نعيشها؛ وهذه الحياة الطيبة قد يحققها لنا تلقائيًا إن اتبعنا أوامره، وقد نتعرض لابتلاءات، والابتلاءات في حقيقتها لا بد منها طالما أننا في الحياة الدنيا، وطالما أننا سننال من الله خير الجزاء إن صبرنا عليها وهنا يكون السؤال:

هل صحيح أن هنالك جزاءً إن اتبعنا الأديان؟

بمعنى أين ينتهي الصراع بين الدين و الحياة؟

هنالك أديان ليس عندها جزاء فقط، أوامر ومعتقدات، وعندما يموت الإنسان يفنى أو تنتقل روحه إلى مكان آخر أولأجساد أخرى، و لا يكون هنالك عقاب، وهذا معتقد باطل في تصوره، وما بني على باطل فهو باطل و لو كان الأمر كذلك فأين العدل؟

لماذا لم يكن كل البشر على مستوى واحد؟

لماذا يموت البعض ولم تتحقق لهم السعادة؟

أين من ظَلم ومات ولم تؤخذ منه الحقوق؟

هل أنتهى كل شيء بموته؟

هل فاز بأنه طوال حياته لم يُكتشف أمره؟

قد يقولون أنه عوقب بأن أصبحت روحه شريرة، وهنا لنتعرف على من تسبب هو في ظلمه؟

كيف سيحصل على حقوقه؟

كيف ستقر عينيه وهو لم يرى انتصاره على من ظلمه؟

من سيعوضه عن أيام بؤسه؟

أما من يقولون بأن هنالك جزاءً إن اتبعنا الأديان بعد الموت؛ فلا بد لقولهم من اثبات، والاثبات هنا في كيفية أن تعود روحه إلى جسده بعد الفناء؟

من سيعيد ذلك؟

لن يعيد ذلك إلا من استطاع أن يخلقها أول مره، و ليس هنالك إلا الله عز وجل الرب الوحيد الذي اثبت قدرته على خلق الكون وما فيه، و هذا الأمر يعيدنا إلى أن الله عز وجل هو الرب الحق الذي خلق الكائنات أول مرة، وبالتالي هو من سيعيد لتلك الكائنات تلك الروح، وعلى ذلك فدينه دين الحق.

كذلك لا بد لمن قال بأن هنالك جزاءً، وأن هنالك ربًا يجازي وهو الله؛ مثل اليهود والنصارى فلا بد أن يوافق دينهم ما يقولون بالاتباع الصحيح لهذا الرب؛ وإلا فليس لما يقولونه قيمة، فكيف يعترفون بالجزاء ولا يستعدون له بالطريقة الصحيحة؟

كيف يدعون بأنهم يتبعون الله الحق ويخالفون منهجه الذي يأمرهم باتباع آخر أنبياءه؟

ولذلك لن يكون الدين الحق إلا باتباع الرب الحق وقبول منهجه سبحانه.

بقبول كل ما جاء به الله عز وجل.

بالإيمان بكل كتبه ورسله.

لنترك الحديث عن الجزاء للفصول القادمة ولنعد للصراع؛ وهنا سؤال:

طالما أننا مع الدين الحق والذي هو من الله الحق الذي جاء بدين يناسب الحياة، فلماذا الصراع إذًا؟

هل هو بسبب البشر الذين دخلوا الدين واتبعوه بإرادتهم؟ وهنا نسأل:

إذًا فلماذا خالفوه؟

أم هو من الدين الذي لم يتغير مع الحياة؟ وهنا قد نقول لماذا أوجد الله هذا الصراع؟

بداية لنعلم أن الصراع بين الدين والحياة هو صراع باطل في حقيقته، لأن الصراع لا يكون إلا بين قوتين متضادين ولا تضاد هنا بين الدين والحياة.

نعم.. لا تضاد، ولو قلنا بالتضاد هنا فإننا نقدح في الله عز وجل الذي آمنا وأقررنا بأنه صانع هذا الكون، فالله أوجد هذا الكون وهو المكان، وكذلك أوجد هذا الدين والذي هو القانون الذي يدير ذلك المكان، ولو كان للكون صانع وللدين موجد آخر لقلنا بعدم التناسق، لكن طالما أن الصانع والموجد واحد فاحتمالية التناسق كبيرة جدًا، ولذلك نقول بأن الدين يناسب الحياة التي نعيشها لا كما يسوق البعض من أن الدين لا يناسب الحياة؛ بل أن الحياة لن تستقيم بعيدًا عن الدين.

إن الذي أوجد الصراع بين الدين و الحياة هم العباد.

هم البشر.

هو الهوى.

نعم!

إن النفس البشرية لا تحب أن تتقيد بطبيعتها.

و لا تريد أن تتلقى الأوامر حتى لو كانت تلك الأوامر فيها من الخير العظيم لها.

إن النفس البشرية عندما وجدت إله لا يأمرها، ولا تشعر أن حياتها وكل سكناتها مراقبة من قبل ذلك الرب فلن تكون في خلاف معه، وهذا ما توفره كل الديانات الباطلة، وإن كانت لها أوامر فإنها على استحياء .

نعم.. فهي مجرد ديانات لا تقيم حياة، ولا ترتقي بمجتمع، بل هي ديانات وأرباب مزيفة كما ذكرنا سابقًا.

كيف لرب لم يخلق كونًا أن يهتم بهذا الكون؟

إنها أرباب وديانات تهتم بذاتها فقط، وبما يحمي بقائها وسطوتها، لا بمن يعبدها، هذا إن كانت تشعر بهذه العبادة أصلًا.

ماذا فعلت البقر لمن يعبدها، وهل طورت من حالهم؟

هل اهتمت الأصنام ببناء المجتمعات؟

هل اهتم بوذا ببناء الإنسان البوذي، واهتمت بعلاقاته مع من حوله من بشر، وطور الحياة ؟

هل وضع شرائعه أم وضعها له اتباعه؟

بل هل الطواغيت التي تشعر وتملك روحًا فعلت شيئًا مما ذكر مع من يعبدها؟

ثم أين اليهود والنصارى واتباع الأديان السماوية الذين رفضوا اتباع خاتم الأنبياء وبالتالي رفضوا الاستمرار في الإسلام؟

هل ارتقوا بالحياة الاجتماعية لمن ينتمي إليهم؟

كيف حال مجتمعاتهم الآن؟

إنها علاقة قائمة فقط على انتماء عابد لدين، صحيح أن هنالك أوامر تفرض من بعض الديانات لكنها على استحياء كما ذكرنا، وقد لا تكون مُجبِرة وليس لها مكان في سباق الحياة وإن حاولت، بل حتى وإن كانت مجبِرة فهي لفئة دون غيرها، وهي كذلك لمصلحة المعبد لا العابد.

إنها علاقة تنتهي حال الخروج من المعبد، أتدرون لماذا؟

لأنها لا تستطيع حماية عابدها.

لأنها باختصار لا تمتلك أسرار ومفاتيح هذا الكون، ولذلك في كل الأديان الباطلة تراهم في تفاصيل العبادة يهتمون بالعزلة على الدوام، ويفضلونها على مخالطة الناس فهل سألتم لماذا؟

لأن هذه العزلة باختصار تمنعه من مواجه الحياة واستكشافها.

لأن المخالطة تفضح دينهم و تعريه.

نعم تعريه، أنه لو كان باستطاعتهم بسط نفوذهم لفعلوا؛ ولكن لأن دينهم كجرف هار لا يستطيع مواجهة الحياة، ولا بنائها، كما فعل الإسلام في الجزيرة العربية وآسيا وإفريقيا والأندلس وكل مكان بسط نفوذه فيه.

نعم في الأندلس تلك البلد التي نقل منها الإسلام حضارته إلى أوروبا فحاربوه؛ ليس لأنه عدو لهم فقط.

لا..

لكن لأن الإسلام أثبت للعالم بأنه ليس هنالك دين يستطيع أن يعيش الحياة مع البشر، أو أن يقيم حضارة كتلك التي أقامها، ولذلك حاربوه وقالوا علمانية وليبرالية، وإن كانوا حاربوه بعقيدة دينية باطلة.

إن الإسلام دين حياة .

صحيح أن الدين الإسلامي يدعوا للاعتكاف ويضع الأجور العظيمة لذلك؛ لكنه جعل الأعظم منها لمن يواجه الحياة.

دعى للاعتكاف أيام معدودة؛ وأمر بالخروج للحياة كل أيام السنة.

إن البشر هم من يحمون آلهتهم خارج المعبد، فيدخلونها لمخبئها أو لداخل المعبد حتى لا يؤذيها أحد، أو حتى لا تحطمها الرياح، أو من أن تُسرق، فكيف تحمي من يعبدها خارج المعبد، ففاقد الشيء لا يعطيه.

إن العَالَم عندما يترك ربه وأوامره في المعبد ليخرج إلى الحياة فيجد أن المسلم قد أحضر دينه معه، واستعان به في كل أفعاله و تصرفاته.

يرى العالم بأن دين المسلم يشاركه السوق والشارع.

يرى كل ذلك وهو لا يستطيع أن يأتي بدينه؛ لأنه باختصار لم يوجد للحياة، ولذلك لن يستفيد باستخدام دينه الباطل في الحياة، وعندها سيكون الصدام لا محاله، ويكون الصراع لا محالة.

صدام بين العَالَم وبين هذا الدين .

وصراع كذلك مع هذا المسلم الذي يحمل هذا الدين معه للحياة لإخراج الدين منه أو اتهامه بتخريب العالم.

إنه صدام لإخراج الدين من الحياة كما خرجت كل الأديان قبل ذلك، إن كانت دخلت للحياة أصلًا.

إن الأديان عندما تُصنع للمعابد فلن تستطيع الإحاطة بما هو خارج المعبد، ولذلك ترضى بذلك القعود، لكن الإسلام لم يوجد ليُترك في المساجد، إنه دين حياة، والحياة هنا ليست كما يظن البعض من أنها حياة مقيدة، أو أنها عطلت التطور وهذا بالضبط ما يروجون له عن الإسلام.

إنها إشاعات مغرضة يطلقها من لم يستطع مجاراة الإسلام في هذه الحياة فكانت تلك الأقاويل.

إنه دين خرج للحياة ليرتقي بها وبكل من فيها.

قد يقول قائل بأن العالم عاش حضارة كبيرة في اليونان، وفارس، والروم، وغير ذلك بعيدًا عن الإسلام فكيف تقولون بأن الإسلام وحده من يبني الحضارة؟

كيف تقولون بأن الأديان التي كانت منتشرة في تلك الفترة لم تحقق تلك النقلات لأبنائها؟

للإجابة على ذلك لنبحر سويًا للأسطر القادمة.

هل يحارب الإسلام العلم والتطور؟

ذكرت في مؤلفات سابقة لي بإيجاز عن حقيقة التطور الذي نراه من حولنا، وعن المقصود بإعمار الأرض، لكن قبل أن نخوض بالتفصيل هنا لنسأل أنفسنا:

مالذي سيخطر في بالنا عند الكلام عن التطور؟

كيف نعرف بأن الذي نراه أمامنا هو تطور أو تقدم؟

ما مفهوم التطور؟

هل التطور هو الانتقال من حال إلى حال؟

هل مواكبة الأحداث يعتبر تطورًا؟

بل هل كل حدث يعتبر تطورًا حتى لو كان سيئًا؟

هل يضيف التطور للإنسان؛ أم أن الإنسان هو من يضيف إلى التطور؟

لا بد أن نعلم جيدًا بأن التطور هو التحسن، وهو غالبًا ناتج عن علم.

نعم، فالتحسن هو أبلغ كلمة نستطيع أن نصف بها معنى التطور، وعلى ذلك ليس التطور بأن نقول عنه أنه انتقال من حال إلى حال آخر، وكذلك أن أي تغيرات تحدث ليس شرطًا أن تكون تطورًا.

إن التطور كذلك لن يكون تطورًا طالما أنه لم يحقق المقصد.

لم يحقق المقصد من وجود الإنسان على هذه الأرض، أو يساعده لتحقيق ذلك، أو ما يريد تحقيقه بسهولة واتقان، وأن غير ذلك ما هو إلا خدمة للأرض التي وُجد عليها.

كذلك لنعلم بأن التطور لن يكون تطورًا طالما أنه حقق السهولة والاتقان والتحسن لفئة محددة من البشر.

إن التطور هو تحقيق السهولة والاتقان والتحسن لكافة البشر بكافة أطيافهم أو مساعدتهم على تحقيق ذلك.

بحسب ما سبق ماذا نشاهد حولنا؟

هل نستطيع أن نقول عنه أنه تطور؟

هل حقق السهولة والإتقان والتحسن لكافة البشر؟

هل وافق فِطر الناس ومبادئها؟

لماذا هو لفئة معينة دون غيرها؟

هل عندما تتحقق السهولة والاتقان لفئة معينة دون غيرها نقول عن ذلك أنه تطور ؟

هل عندما تسهل لنا الحياة في أمور، وتكون تلك الأمور سببًا في بعدنا عن الهدف الذي وُجدنا من أجله والذي بتركه قد يُغضب من أوجدنا على هذه الأرض يكون ذلك تطورًا؟

هل من التطور أن يتحكم بعض البشر فيما تبقى بشر؟

هل هو في تملك بعض البشر لبعضهم البعض؟

إن ما نشاهده الآن من حولنا من قوة في العمارة ليس تطورًا لأنه ساهم في تطور الأرض لا الإنسان، وهنا قد نسميه ما نسميه من عمارة للأرض، أو نقول أنه تقدم تكنولوجي، لكنه بالتأكيد ليس تطورًا بحال من الأحوال، وإذا أردنا أن نعرف أن ما يحدث هو تطور أو ليس بتطور لنرى أين يقف الإنسان من هذا الأمر.

أن نعرف ماذا قدم هذا الذي نريد أن نسميه تطورًا للإنسان ؟

ماذا فعل به؟

إن ما نراه من حولنا هو أن من الناس من أصبح خادمًا لهذا التقدم التكنولوجي، وبالتالي لن يستمتع به لأنه مشغول بخدمته، أو هو محروم من الاستمتاع به، بسبب أنه وُجد لغيره.

هنا قد يأتي تساؤل:

هل معنى ذلك ألا يقوم الإنسان بصناعة التطور؟

أبدًا، ليس معنى ذلك ألا يقوم الإنسان بصناعة التطور، فلن يقوم بصناعة ذلك التطور غير الإنسان، لكن نقصد من ذلك بأن لا يكون الإنسان خادمًا للتطور من أجل أن يستمتع به مجموعة أخرى، وهنا قد يقول قائل بأن ما ذكرته ليس بصواب، لأن تلك سنية الحياة.

نعم خلق الله البشر متفاوتين ليخدم بعضهم البعض، ولو لم يكونوا متفاوتين لما وُجد أحد لبعض المهن، لكن لا يعني التفاوت الحرمان.

إن ما يقول الناس عنه الآن بأنه تطورًا قام بتصنيف صنفين من البشر، أحدهما مكث ليستمتع بما يقول عنه تطورًا؛ أما الآخر فعاد إلى بيته القديم ليشعل مصباحًا ورثه عن جده بعد عناء يوم في خدمة ذلك الذي نريد أن نسميه تطورًا.

حتى لو قمت بتأمين غرفة في برج شامخ لذلك العامل وعائلته؛ فلا يعني ذلك استمتاعه بالتطور طالما أنك تقيده لخدمة التطور فقط دون الاستمتاع به، فليس معنى الاستمتاع أن تسكنني في برج شاهق لأشاهد التطور دون أن تمنحني فرصة لأن أحقق الأسباب التي تعينني لتحقيق ذلك الاستمتاع.

إن التطور لا يعني فقط استبدال بيوت الطين بناطحات السحاب، لا.

ولا خبز التنور بوجبة برجر.

ولا اختراع آلة في المصانع ليبقى العمال في بيوتهم بلا عمل، لا.

إن التطور هو ارتقاء بالإنسان.

هو تبسيط الحياة للإنسان.

ماذا فعل الذي يدعون أنه تطورًا بالأيدي العاملة في المصانع عندما حضرت الآلات لتعمل مكانهم؟

وماذا فعلوا بقيم الإنسان وأخلاقه؟

هل يظنون أن التطور فقط في المباني الإعمار؟

أين هو عن قيم الإنسان؟

عن احترام الناس لبعضهم؟

عن عدم استغلال فقرهم لظلمهم أو التشبيح عليهم؟

عن توفير فرص وظيفية للإنسان؟

عن تأمين حياة كريمة للإنسان؟

عن إعطاءه حقه في حرية ممارسة ما يري؟

عن الاهتمام بجوانب الإنسان الاجتماعية والصحية؟

بل أين ما يقولون عنه تطورًا عن الهدف الذي خُلق الإنسان من أجله؟

إن من أهم مقومات الحياة تحقيق عدالة اجتماعية على الأرض، وإن العدالة الاجتماعية لن تحققها توجهات بشرية أرادت بمسمى التطور حصر متع الحياة لمجموعة من البشر دون آخرين.

إن الحياة خلقها الله للجميع.

ليعيش فيها الجميع بكرامة وليستمتعوا بها بكرامة.

نعم هنالك تفاوت، لكنه ليس إلغاء.

نعم هنالك فروقات، لكنها ليست للاستغلال.

ليست تملك.

إنه لمن الغباء أن نظن بأننا نستطيع أن نزيد من أرقام ثرواتنا فقط باستغلال البسطاء.

بالسيطرة عليهم.

بالقضاء على طموحاتهم وأحلامهم، وجعلهم يعيشون على هامش الحياة؛ فقط لأننا نرى أننا النخبة؛ وننسى أو نتناسى بأن الحياة للجميع.

إننا اليوم نشاهد الكثير من الأمم من حولنا شيدت الأبراج وناطحات السحاب، وقدمت كل شيء من أجل أن تتصدر وتكون لها حضارة، لكنها وبعد سنوات من البناء المعماري فشلت، أتدرون لماذا؟

لأنه كما ذكرنا لم تهتم بالإنسان.

لم تبني الإنسان.

أسقطت الإنسان فسقطت ولم تستفد من تلك الناطحات، لأنها بنتها لتنظر منها فقط.

إن الإسلام فقط هو من قام بتحقيق كل ذلك للإنسان؛ ورسم له عدالة اجتماعية راقية؛ وإن الحضارات التي أقامها لهي خير دليل على صحة ذلك؛ وكيف أن كل إنسان عاشها في تلك الفترة واستمتع بها؛ وشعر معها بإنسانيته؛ بل وحتى الحيوان، وأن تلك الحضارة ما ذهبت من المسلمين إلا لأنهم تخلوا عن مبادئ الإسلام الذي أقام تلك الحضارات؛ واستبدلوها بمبادئ دخيلة على الإسلام فخرج الإسلام وسقطت حضارتهم.

إننا في الفصل القادم سنعرف كيف أن الإسلام لم يقم بإعمار الأرض فقط، وإنما أوجد عدالة اجتماعية من أجل الإنسان ليعيش وليكون وليتطور.

سنعرف عن تلك العدالة الاجتماعية، ومن مِن الممكن له تحقيقها في هذا الكون لتحقق للإنسان وتساهم في بناء حضارته الحقيقية لا المزيفة كالتي جاءت بها كل الحضارات السابقة والأنظمة الحديثة.

سنعرف كيف أن كل تلك الحضارات السابقة والأنظمة الحديثة ما أرادت من الحضارة والتقدم إلا خدمة بقائها.

لكن قبل أن نختم هنا هنالك تساؤل عكسي:

هل يمكن للحياة أن تطور الدين؟

لنعلم هنا بأن الدين أنزله الله بما يناسب الحياة، والحياة ليست المقصود بها فترة نزول الدين، لكن المقصود بها كل الحياة في كل الأوقات، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولذلك نجد الآن ونحن نأتي ببعض مسائل الحياة العصرية لإنزالها المنزل الشرعي ونظن أننا لن نجد مكانًا لها في الإسلام؛ وبالتالي سنأتي لها بحكم دنيوي وضعي أوبحكم مستجد لنتفاجأ بأن لها مكانًا في الدين؛ وأن في الدين ما يوافقها؛ رغم أن ذلك الحكم لم يُنزل على مسألة من قبل؛ وما ذلك إلا دليل على أن دين الإسلام يحيط ويتسع للكثير والكثير؛ بل ولكل المسائل التي لم تتضح لنا بدايةً؛ لا لأن الدين صعب أن يفهم الواقع أو أنه من الصعب أن نجد له مكانًا في الحياة؛ لكن لأن الحدث لم يأتي بعد وبانتظار حدوثه ليلبس الحكم الشرعي؛ وما ذلك إلا دليل على أن هذا الدين لكل زمان ومكان، وأن الحياة هي بحاجة إلى تكامل هذا الدين ليضيف إليها؛ لا إلى أن تضيف إليه، ولن تضيف لكامل.

إنه لمن المحزن أن نجد من يريد أن يكيف الإسلام أو يجدد فيه ليوافق أنظمة معلبة أو فلسفات يونانية باطلة، وليس ذلك بسبب

أنه رأى أن تلك الأنظمة أو الفلسفات هي خير من الدين فقط، ولن يستطيع أن يرى ذلك لو وزن بميزان العدل، لكن لأنه لم يبحر في هذا المنهج العظيم، ولم يعرف أسراره وحكمه فانبهر وتأثر بثقافات دخيلة، ومصطلحات غربية في زمن غَلُب فيه الهجوم على الإسلام؛ فأصابت ذلك المريد حُمى الذُل والهوان والشعور بالنقص فكان كغثاء السيل.

هنا سؤال أخير قبل أن نختم :

هل يقف الدين ضد التطور العلمي؟

في الأديان الباطلة نعم؛ وشاهدنا كيف أن الأديان وقفت ضد العلم؛ لأن العلم باختصار عراها وفضحها وكشف زيف تلك الأديان لأنها لم توافق الفطرة ولا الكون فكان الصراع على أشده بين الكنيسة والمعبد من جهة وبين العلم؛ و بدا ذلك جليًا في حضارات الأمم السابقة، وكيف كان ذلك أحد أسباب دعوات علماء كل تلك العلوم وساسات تلك المجتمعات لفصل الدين عن الحياة، والتي لم يستطع الدين في ذلك الوقت مواجهتها لضعف حجته، لكن الإسلام لم يكن كذلك لسبب بسيط جدًا وهو أنه كلما زاد علم ومعرفة الإنسان وظهرت الاكتشافات؛ كلما وافق ذلك الإسلام وأيده، ولذلك لم يخشى

الإسلام من العلم كما هو حال تلك الديانات الباطلة، لذلك دعا الإسلام للعلم؛ وللجمع بين الدين والحياة وهو يثق أنه سيجمع الدين بالحياة؛ لأنه دين حياة ودين يطور الحياة، ويرتقي بعقل الإنسان و بالعلم.

إن العلم يكتشف في كل تقدم له من أن الإسلام هو الدين الحق لأنه يوافق ما يكتشف، ولأن كل اكتشاف وتقدم يدل على الله الذي أراد لنا الإسلام دينًا.

هل يمكن للدين أن يبني حضارة؟

بدايةً ما معنى الحضارة؟

ما مفهومها؟

هل تعني الحضارة أن أعيش في بيئة مدنية؟

لو كان كذلك، هل يستحال أن تقام حضارة في الصحراء أو في القرية؟

هل العيش في مدينة دون بناء اجتماعي، ثقافي، فني، أخلاقي، راقي يعتبر حضارة؟

هل الحضارة مادية أم معنوية؟

هل هي بالبناء و العمران؟

بالمسارح و المتاحف؟

بالزراعة و الصناعة؟

نعم هي كذلك لكن ليست كل ذلك، ولا نصف ذلك، بل هي قليل من ذلك، فالحضارة هي ارتقاء روحي ومعماري.

بالإثنين، وقد تستقيم بالروحي فقط لكنها أبدًا لن تكون فقط بالعمران.

مشكلتنا أننا عندما نتحدث عن الحضارة نتكلم عن العمران، والفنون، والادب، والصناعة، وننسى الجانب الروحي أو أننا لا نهتم بجودته.

نتكلم عن جودة الصناعة ولا نفكر بجودة القيم والمبادئ والفطرة السليمة.

لا نفكر ببناء الروح والبناء هنا هو احترام الروح.

هو الارتقاء بها.

هو فتح مساحات لها من الحرية و السمو.

هو في تحقيق عدالة اجتماعية للإنسان -والتي سنتكلم عنها- ليحافظ على وجوده، وليحقق الحماية، وليتطور، ولذلك كل ما نراه من حولنا من حضارة لا يلبث أن يسقط طالما أننا أهملنا الروح والقيم والسمو الأخلاقي، وجعلنا اهتماماتنا صوب

العمران فقط، وعلى ذلك هل نقارن حضارة فارس أو الروم بما عند أهل الجزيرة العربية بعد الإسلام؟

هل أصلًا كان للعرب حضارة في جزيرة العرب باستثناء حضارات اليمن؟

لماذا ينتصر العرب بعد الإسلام على أعتى حضارات العالم رغم عدم امتلاكهم لتطور عمراني على الأرض؟

السبب لأنها حضارات مزيفة.

لماذا لا نعترف بذلك؟

ولماذا لا نعترف أن تلك الحضارات لم تصمد أما الإسلام؟

ثم لماذا لا نعترف بأن الإسلام بنى حضارته بعد ذلك وساد بها الدنيا؟

قبل أن نتكلم عن الدين وبناءه للحضارة لنذكر سبب أننا لماذا قلنا عن كل الحضارات القديمة أنها مزيفة.

إنها مزيفة لأنها باختصار لم تهتم بالإنسان؛ بل بما يحافظ على بقاءها؛ واستمرارها؛ وهذا الحديث ذكرناه عندما تكلمنا عن التطور.

إن الحضارة ترجمة للتطور وهي ارتقاء بالإنسان والذي هو المقصود من وجود الحضارة.

بل المقصود من وجود الحياة.

صحيح أن بقايا تلك الحضارات موجودة في المتاحف والكتب، ونرى عظمتها و عظمةما فعلته، لكنها رغم ذلك لم تخدم الإنسان.

لم تقدم للإنسان.

لم تسمو بروحه.

و لم ترتقي بأخلاقه.

إنها أعجوبات لن يرى التاريخ في حسنها، لكنها كانت لأناس دون آخرين.

للسلاطين وجلسائهم.

للنخب والمثقفين، ولم تكن للبسطاء ولا للفقراء.

لم تكن لكل الناس ومن أجل الناس.

لم ترتقي بدينهم وأخلاقهم، ولهذا ذهبت وإن بقيت آثارها.

بقيت آثارها، وبقيت معها كذلك الكثير من القصص لمن عاشوا في تلك الحضارات، وعانوا من الجوع، والفقر، والانحطاط الأخلاقي، و لمن عملوا كعبيد عند الطبقة النخبوية.

إن ما نسميه اليوم بالحضارة عند الغرب هي مثل تلك الحضارات القديمة والمزيفة التي كانت عندهم وعند غيرهم، وإن وجود التكنولوجيا الآن لا يلغي أن تكون مثلها أو يقودها للتميز عنها.

لنعد إلى الدين و الحضارة ونسأل:

من يصنع الحضارة؟

هل يستطيع الدين أن يبني حضارة؟

هل هي حكر على فئة معينة؟

هل لها شروط معينة؟

هل فشل الإسلام في بناء حضارته؟

كيف نقول عن حضارات الدنيا بأنها مزيفة، وأن الدين هم من يبني التطور، ثم ها نحن نرى حضارة الإسلام في الأندلس تسقط ؟

هل يدل السقوط على فشل الإسلام حضاريًا أم ماذا؟

إن مسلسل سقوط الأندلس لهو دلالة عظيمة على أن الدين لا يصنع حضارة فقط، لكن ويقودها وينميها إن عُمل بالمقومات التي يتبناها، والمقومات هنا هي مبادئ العدالة الاجتماعية التي دعى إليها.

نعم، سقوط الأندلس لم يكن بسبب أن الدين لا يستطيع أن يقود الحضارة، لا.

إن ذلك بسبب أننا غيرنا المقود.

أننا أكملنا قيادة حضارتنا بعيدًا عن الدين.

بعيدًا عن المبادئ والقيم.

نعم..

فصلنا الدين عن حياتنا، وابتعدنا عنه فكان السقوط.

إنها حضارة بنيت في عز تمسكنا بديننا، وهنا نشير إلى ما قاله العالم الفيزيائي بيار كوري عن حضارة المسلمين في الأندلس، حين وصف روعتها وعظمتها بكلمات قال فيها: (لدينا ثلاثون كتابًا فقط بقيت من الأندلس المسلمة، وهذا مكننا من تقسيم الذرة، فماذا لو بقي النصف مليون كتابًا التي أحرقناها من تلك

الحضارة الإسلامية العظيمة؟ نحن أوغاد فلو لم نحرقها لكنا نسافر بين مجرات الفضاء).

إنها حضارة عظيمة، وإنها ما انتقلت إلى أوروبا؛ ولا حظوا أننا نقول انتقلت ولم نقل سقطت إلا بعد سقوطنا دينيًا ولم تقد أوروبا الحضارة بعد ذلك إلا بعد ذلك السقوط، ولنعلم أن استعادة الإسلام للحضارة سيكون أسهل من الطريقة التي انتزعت بها أوروبا الحضارة منا لسبب بسيط هو أنهم انتزعوها منا وفينا بقايا دين؛ لكن أين الدين منهم إذا أردنا استعادة تلك الحضارة؟

إننا حينما بنينا حضارتنا ملكنا الجانبين الروحي والعمراني وهم لم يملكوا إلا الجانب العمراني؛ وإننا الآن لا نملك أي منهما؛ ولو ملكنا العمراني فإنه ضعيف؛ وإن كان سينافسهم في بعض ما يملكون من عمران؛ لكن عزاؤنا للعودة الحقيقية هو امتلاك الروح.

امتلاك الدين لنعود.

وسنعود.

إن الدين هو منظومة كغيره من المنظومات، يستطيع بناء حضارة فقط لو كان يملك من المقومات ما يؤهله لبنائها على

هذه الأرض؛ فقط لو كان هو الدين الحق الذي أنزله الله، لأنه سيملك حينها مفاتيح الكون الحقيقية، ومبادئ عدالة اجتماعية حقيقية، ومبادئ أخلاقية راقية، فالكون كون الصانع، والدين دين الصانع، وبالتالي سيكون هو منهج حياة، وعندما يكون منهج حياة سينظم ويبني هذه الحياة، وهذا بالضبط ما ينطبق على الإسلام؛ دين من صنع هذا الكون.

إنها معادلة نستطيع حلها دون أن نسير خلف ثقافات ووجهات نظر سائدة تخبرنا بأن العالم قد تغير؛ وأن الدين لا بد له أن يتغير ليواكب ويتكيف.

إنها معادلة بسيطة ليست بحاجة إلى جهد لاستنباطها، فقط هي بحاجة إلى عزة، فمن اعتز بشيء ارتقى به.

الفصل الرابع

مَن يستطيع تحقيق عدالة اجتماعية لهذا الكون؟

لن يحقق البشر لأنفسهم عدالة اجتماعية على الأرض وإن حاولوا في ذلك لسبب بسيط جدًا؛ وهو أن كل من سيحاول تحقيق ذلك من أفراد أو منظومات سواءً كانت أحزابًا، أو أنظمة، أو ديانات باطلة وضعها البشر أو محرفة ستقتصر نظرتهم على أمور تهمهم وإن أضرت بغيرهم.

قد يخدموا أهداف استمراريتهم.

قد ينظروا في أمرهم؛ وإن لم ينظروا هم سينظر من سيأتي بعدهم؛ وستتغير تلك العدالة، وستتجه بوصلتها باتجاه من يريدها له؛ لأنه حينها سيكون الأقوى.

ثم وإن حاولوا تحقيق تلك العدالة، هل هم ملمين بكل ما حولهم؟

هل يعرفون أسرار هذا الكون لتحقيقها له؟

لنسأل بدايةً:

ما معنى العدالة ؟

ما مفهومها؟

لماذا العدالة؟

هل المقصود منها العدالة القضائية؟

لماذا نحتاج إلى عدالة اجتماعية؟

ما هي الأجواء التي تحقق عدالة اجتماعية؟

من المسؤول عن تطبيقها؟

إن العدالة الاجتماعية هي نظام يمس كل حياة الناس وحاجاتهم لإزالة الفوارق، وصناعة الفرص، وتحقيق التوازن، وتوزيع الثروات بصورة عادلة فيما بينهم.

إنها عدالة تمس كل جوانب الحياة الاجتماعية، والاقتصادية، والقانونية، وغيرها، وهي ضرورية لتتحقق الطمأنينة في المجتمعات، والطمأنينة هنا ستقود بالتأكيد للتطور؛ وبالتالي إلى

إعمار الأرض، فالتطور هو نتاج عدالة اجتماعية راقية لا معمارية مثلما نظن وقد تكلمنا عن ذلك.

العدالة الاجتماعية هي اعتراف بحق كل فرد مهما كان بأحقيته في العيش على هذه الأرض، والتمتع بكافة الحقوق، والفرص، والسعي للارتقاء بها.

إن العدالة في المجتمع ينبغي أن تُبنى على مبادئ من الحرية والاحترام والتكافل والمساواة لتحقيق الوجود والبقاء والتطور لذلك الإنسان، وعندما نتكلم عن البقاء فليس المقصود به هنا الخلود؛ لكن إلى أن يرث الله الأرض وما عليها.

قبل أن نتحدث عن هذه المبادئ لنعد إلى بداية حديثنا ونجيب على التساؤلات:

من يصنع هذه العدالة؟

من يحميها؟

لماذا لا يستطيع أحد تقديم العدالة الاجتماعية إلا الله عز وجل؟

لماذا لا تعدها الديانات الأخرى أو المنظومات؟

للإجابة على ذلك لابد بداية أن نعلم بأن العدالة الاجتماعية هنا بحاجة إلى من يحميها ويقدمها للناس؛ لا إلى من يصنعها لهم،

لأن الصانع هنا لن يفعل ذلك، فهو ببساطة لن يستطيع صناعتها وإن حاول، سواءً كان فردًا أو منظومة، وقد تكلمنا عن ذلك في الأسطر السابقة، ذلك لأنه فرد في هذه الحياة بحاجة إلى أن يستفيد من تلك العدالة فهو إما أن يكون حاميًا للعدالة؛ فيكون زعيمًا على قومه، أو نظامًا، أو دينًا باطلًا يريد استغلال من يعبده، أو من هو تحت منظومته، أو هو فرد في مجتمع تقدم له العدالة، وفي كل الأحوال هو سيصنعها بما يناسبه، ولن يلتفت لذلك الإنسان وتركيبه، أو لذلك المجتمع وأسرار تكوينه، ولذلك من يصنع العدالة هنا بطريقة عادلة هو الله عز وجل.

نعم، الله عز وجل، وقد فعل ذلك سبحانه ونظم هذه العدالة الاجتماعية في الشريعة الإسلامية، ذلك الدين الذي جعله لأهل الأرض منهجًا ودستورًا.

لن يقدم لمجتمع البشرية هذه العدالة الاجتماعية إلا من خلق الكون فأهمية تحقيقها بأهمية هذه الدنيا، نعم.

إن الله سبحانه هو الصانع، وهو أعلم بما يناسب من عدالة لتقوم بها الحياة، وسيجازي كذلك عند التقصير في أدائها أو حمايتها.

إن البشر يعمرون الأرض، ولذلك هم بحاجة إلى نظام يحميهم و يساعدهم على الإعمار، والنظام هنا يكفله من خلق الحياة.

إننا لو تأملنا من حولنا في كل بقاع الدنيا وفي كل المجتمعات لنرى كيف تسير عدالتهم التي أوجدوها لوجدنا أنها على شفا جرف هار.

نعم..

وإن قلنا بأن المجتمع الغربي هو أفضل من يقيم تلك العدالة فسنكتشف بأن كل ذلك كان هراء.

نعم هراء، وكل تطور يدعون أنهم حققوه بالعدالة التي يقيمونها فهو ساقط لا محالة، وإننا لنراه تطورًا فقط لأننا قارناه بواقعنا؛ فوجدناه أفضل واقع موجود على الأرض؛ وأفضل الموجودات لا تعني بأي حال من الأحوال صحتها؛ وهذه معادلة بالتأكيد لا شك فيها.

إنها عدالة تخدم مصالح من هو قائم عليها وأتباعه.

إنها لخدمة المسؤول، أو الحزب، أو الجماعة، التي ينتمي إليها ذلك المسؤول لأنها سر بقاءه وإن أعطى من حوله من تلك العدالة فهو فتات.

نعم هو فتات وأن كل مساواة ظاهرة لنا فهي مساواة في توزيع ذلك الفتات.

إن الأغلبية المسيطرة في مجتمع ما هي من تنال تلك المميزات، وهي من تهنأ بها، وإن البسطاء ليس لهم إلا التصفيق، أو بطاقة إعانة، أو مساعدة، أو بمسمى أرقى قليلًا.. حقوق انتماء.

إن كل حضارة مهما بلغت قوتها لن تستطيع الصمود أمام الحياة إلا إذا واجهت الحياة بقيم راقية حقيقية لا قيم رأسمالية، أو شيوعية، أو ديمقراطية كاذبة، أو اشتراكية، أو وطنية، أو غير ذلك.

لن تستطيع الصمود إلا عدالة الله التي وضعها لمخلوقاته.

إلا حكم الله.

إلا قيم الله، ومن أحسن من الله صبغة

إنها عدالة قامت على مبادئ من الحرية، والاحترام، والتكافل، والمساواة، ودون تلك المبادئ لن تتحقق تلك العدالة، فلنتأمل هذه المبادئ ولنبدأ بالحرية.

1-الحرية

الحرية هي المبدأ الأول من مبادئ العدالة الاجتماعية التي ينبغي توفرها لتحقيق العدالة، لكن لنسأل:

ماهي الحرية؟

هل لها ضوابط؟

لماذا نضع ضوابط على الحرية؟

كيف ستكون حرية طالما أن لها ضوابط؟ لماذا لا نغير اسمها إذًا؟

لنقل بأن الحرية هي نشاط إنساني يمارسه الإنسان بلا قيد وبلا ضابط.

ما معنى ذلك؟

معنى ذلك أن الإنسان قد يتعدى على حقوق غيره، ويصبح ذلك الغير معتدَى عليه، ومقيد، وهذا يؤدي إلى أن هنالك من قد لا

يستطيع التمتع بالحرية بسبب ذلك التعدي، ويعني كذلك أن تحقيق الحرية لن يكون لكل البشر، وهذا بالتالي لا يساعد على تحقيق عدالة اجتماعية.

إذًا ما الحل؟

هل نغير مفهوم الحرية؟

عندما تحدثنا عن فلسفة العبادة تحدثنا عن الحرية وقلنا حينها بأن الحرية ليست كاملة؛ ولا توجد أصلًا في الدنيا حرية كاملة، بل هي مقيدة بضوابط، والضوابط هنا لم تأتي من أجل قتل الحرية، لكن من أجل تنظيمها، ولذلك هي ليست حرية كاملة، وتحدثنا كذلك من أن الحرية لابد وأن تكون مقيدة في الفعل والفكر معًا، ولا نستطيع أن نمتنع عن التقيد في الفكر لأنها كذلك ستحدث ضررًا تمامًا كالفعل.

ولذلك قلنا بأن أقرب تعريف للحرية هو اختيار الإنسان لأفعاله ومعتقداته دون الاعتداء أو الإضرار بأحد.

إذًا هي نشاط إنساني يمارسه الإنسان بقيد واحد؛ وهو ألا يتعدى على حقوق غيره من الكائنات أو أي أحد طالما أنهم يشاركوه هذا الكون.

لنسأل:

من يحدد الحقوق؟

كيف نعرف هذه الحقوق؟

إن من يحدد الحقوق هنا هو من يضع النظام القائم على هذه الأرض؛ والذي يكفل بتحقيق عدالة اجتماعية؛ وقد تكلمنا عن ذلك وقلنا بأنه لن يستطيع تحقيق عدالة اجتماعية إلا الإسلام.

إلا قانون الإسلام ومراد الله؛ ومراد الله هنا هو الفرق بين المفهوم الإسلامي والمفهوم الآخر؛ كان دينيًا أو غير ديني للحرية.

قد يقول قائل بأن معنى مراد الله الدين؛ فلماذا الدين؟ نحن نريد حرية بعيدة عن قيود الدين؛ فكيف ترجعوننا إلى الدين؟

لنسأل:

أليس ما حولك من منظمات وأمور لها قيود؟

نعم لها قيود.

لماذا دائمًا ننظر إلى الدين فقط على أنه سجن؟

بل والسجن الوحيد في هذا العالم؟

أليست الأنظمة الوضعية سجن؟

أليست الحدود بين الدول سجن؟

أليست العادات والتقاليد سجن؟

أليست أنظمة المرور سجن؟

أليست الوظيفة سجن؟

أليس بيع الفكر سجن؟

أليست الأخلاق سجن؟

أليست جميعها كبت للحرية التي يدعون أن الدين يحاربها؟

إن دعاة الحرية قد يتفقون في مفهوم الحرية وضابط الفعل، لكنهم لا يتفقون عند ضابط الفكر بحجة أن الفكر لا يضر الآخرين كالفعل، وقد تكلمنا عن ذلك عندما تحدثنا عن العبادة، وهذا السبب هو أحد الأسباب التي جعلتهم لا يقبلون بالدين هنا.

لنعلم بأن كل فعل أصله فكرة، وكل فكرة لابد وأن تؤدي إلى فعل حتى لو حُبست في عقل صاحبها.

إذًا الفكرة بالتأكيد ستترجم إلى فعل، ولذلك هما مرتبطان ببعضهما.

إننا على أثر ذلك نستطيع أن نقول بأن معتقد الإنسان وكما أنه سيكون اعتداءً على مراد الله في الكون؛ فإنه بالتأكيد سيترجم إلى فعل ويضر بآخرين على الأرض.

هنا تساؤل:

طالما أن الإسلام لا يوفر الحرية التي يريدها البعض كما يقولون؛ فهل نستطيع أن نقول بأن الديانات الأخرى قامت بتوفير الحرية للبشر؟

لنعلم هنا بأن الديانات الأخرى لم تستطع حماية آلهتها كما ذكرنا فكيف بحماية البشر وتوفير الحرية لهم؟

إنها فقط وفرت حرية مزيفة لمجموعة من البشر بما يساهم لخدمة تلك الديانات فقط، وهذه الحرية ليست من أجل الإنسان لكنها من أجلها هي، ولذلك نسأل:

أين حرية المرأة و حقوقها عند الهندوس وبوذا؟

أين هي عند اليهود؛ بالنسبة لغير اليهود؟

أين هي كذلك عند النصارى بالنسبة لطوائف نصرانية أخرى، وقس على ذلك؟

بل وحتى دعاة الحرية من ليبراليين، وعلمانيين، وغير ذلك لن يستطيعوا توفير تلك الحرية سواءً في الفعل أو الفكر، فهم في النهاية لن يصنعوا حرية كاملة لأنهم حتمًا سيصطدموا بأنظمة لا بد منها وإن كانت باطلة، لكنها تبقى قيود، وهذه القيود أما أن يكونوا هم من وضعوها لينتصروا لمذهبهم، أو أن الحياة فرضتها عليهم.

إن الحرية هي من أجل الإنسان، ولذلك كان تنظيمها ضبطها من أجل أن تكون لكل إنسان، ولذلك نجدها حرية غير مطلقة، وجعلها غير مطلقة ذلك لأنه لا يوجد في الكون حرية مطلقة من أجل تحقيقها للجميع، وحمايةً للجميع، و قد تحدثنا عن ذلك، ولذلك لن نجد مفهوم واقعي وحقيقي للحرية بقيود تناسب البشر وترتقي بهم إلا عند رب البشر الحقيقي الذي خلقهم.

لكن هنا سؤال :

بما أن الله كتب كل شيء من قبل خلق الإنسان فكيف يكون الإنسان حرًا في تصرفاته واختياراته؟

أليس تقدير وكتابة أفعاله قبل وجوده على هذه الحياة تقييد له؟

ألا يعني ذلك أنه مسير؟

للإجابة هنا لابد بدايةً أن نعلم بأن الإنسان عندما خلقه الله بين له طريق الخير وطريق الشر ليختار، لكنه سبحانه كان قد كتب نتيجة ذلك الاختيار قبل خلقه، لأنه يعلم ما سيقرره ذلك الإنسان، وبالتالي كتابة ما سيفعل قبل ولادته هي لإثبات علم الله لا لتقييد الإنسان.

وعلى ذلك لا بد أن نعلم بأن الدين الإسلامي قد كفل للإنسان حريته، سواءً كان ذكرًا أو أنثى، ونظم هذه الحرية.

كيف ذلك؟

كيف أعطيك حرية ثم أنظمها لك؟

نعم الحرية بحاجة إلى تنظيم لا إلى كبح، وهذا الأمر يتفق عليه المفهوم الغربي للحرية، وكذلك المفهوم الإسلامي.

وهذا كذلك تفسير لقولنا بأنه لا توجد حرية مطلقة في هذا الكون، لأنها باختصار لن تتحقق.

إن تنظيم الحرية من قبل الشريعة الإسلامية هي إدارة لمصلحة المجتمع، فالإنسان فرد من مجتمع لا يستطيع العيش بعيدًا عنه، والمجتمع بطبيعة الحال بحاجة إلى تنظيم.

بحاجة إلى توزيع الحرية بين أبناءه بعدالة، تمامًا كتوزيعه للثروات، وكذلك إلى تنقيحها.

إن تحريم الزنا مثلًا والذي تراه الدساتير الغير إسلامية حرية شخصية، هو تحريم ومنع في الشريعة الإسلامية ليس من أجل كبح الحرية.. لا، إنه منع من أجل حرية الإنسان.

من أجل حرية آخر قد يولد نتيجة هذا الزنا؛ وسيكون بعد ذلك مقيدًا في المجتمع، لأنه حينها سيكون ابنًا غير شرعيًا، وبالتالي سيصنف تصنيفًا أقل بين أقرانه الشرعيين.

إن الزنا كذلك ليس حماية لذلك الابن فقط، بل هو كذلك حماية للوالدين من أجل أن يجدوا أبناء حقيقين يرعون كبرهما وضعفهما.

إنه كذلك من أجل حرية رجل أو امرأة قد يفعلان أمرًا يسبب لهما في القريب مرضًا يقعدهما، أو قد يضر بتكوين أسرة.

إنه كذلك حرية لتلك المرأة حتى تتحرك كما تريد دون خوف من أن يعتدي عليها أحد، أو أن يتربص بها أحد.

إن الحرية ليست في أن يفعل الإنسان ما يريد، لكن في أن يستطيع أن يأمن ليعيش.

إن الذين ينادون بالحرية المطلقة كيف لهم أن يطالبوا بها وهم ينادون بالأخلاق؟ لأن الأخلاق ليست حرية.

نعم، إن الأخلاق بحاجة إلى ضبط تصرفات وأفكار، وهذا الضبط هو ضد الحرية المطلقة للإنسان، وقد تكلمنا عن ذلك؛ وكيف أن الإنسان قد يمتنع عن فعل شيء فقط لأنه ليس من الأخلاق.

ملخص ما سبق نستطيع أن نقول بأنه لن يستطيع أحد تقديم حرية كاملة لا في الفعل ولا في الفكر.

سؤال:

كيف يقول الإسلام أنه يعطي للإنسان حرية الانتساب إليه وهو يجبر الناس على الدخول فيه، ويعاقب من يغير رأيه في الخروج منه؟

للإجابة على ذلك نسأل: كيف عرفت أنه إجبار؟

هل الإسلام يرغم الناس للدخول إليه، أم أنه يترك الأمر لهم بالخيار؟

هل إقامة حكم الله على الأرض إجبار لهم بالدخول في الإسلام؟

مالفرق بين إقامة حكم الله، وبين الدخول في دين الله؟

إننا لو تأملنا من حولنا وفي حقيقة الفتوحات الإسلامية لوجدنا أن الإسلام يفتح البلدان، ويحررها من عبودية الإنسان للإنسان ليقيم حكم الله على الأرض؛ لأن الأرض كلها لله، ثم يترك للإنسان ويُبقي له قراره بالدخول في الإسلام من عدمه، وسنفصل ذلك في الفصل القادم.

أما أن الإسلام يعاقب من يخرج من الإسلام فهنا سؤال :

من المستفيد بانتماء الإنسان للإسلام؟

ما هي مصلحة الإسلام من بقاء أفراده؟ أليست عباداته مصلحة تتحقق للإسلام؟

عندما ينتمي الإنسان للإسلام هل يقدم كل منهما خدمة للآخر كما يحدث في المنظومات؟

إن الإنسان بإسلامه لن يدفع ضريبة، ولا مال يقدمه للإسلام حتى نقول بأن الإسلام هو في حاجة له مثل تلك المنظومات التي ما جعلت العقوبات إلا لتحفظ حقها عندما يصيبها ضرر من فقد ما كان يقدمه لها الإنسان .

بل إن الإسلام هو من يُعطي من ينتمي إليه؛ فلو تأملنا عبادات من ينتمي إلى الإسلام في الإسلام لوجدنا أنها رفعة وأجر لذلك

المسلم، بل حتى جهاده من أجل نشر الإسلام رفعة وزيادة له في الأجور، وكلما زاد ذلك الرصيد من العبادات كلما علت مكانته عند ربه، وبالتالي وعقلًا هل سيضرني خروج فردًا من منظومتي طالما أنني سأكون إن استمر فيها واتقن مطالب بمجازاته خير الجزاء على ما قدم؟

إن الله سبحانه سيفعل ذلك رحمة بعبده، ولا ينفعه، ولايضره، ولا يفقره، ولا يغنيه طاعة إنسان أو معصيته.

لنعلم بأن الإسلام دين رحمة، وهو كذلك دين حرية، وقتل المرتد في الإسلام والذي يقولون عنه بأنه ضد حرية المعتقد ليس بسبب أن الإسلام سيضره خروج الإنسان منه.

قطعًا ليس الإسلام كباقي المنظومات يدعوا الناس إليه ليستفيد منهم كما ذكرنا.. لا.

إن الإسلام يعاقب المرتد لأنه دين لحماية الإنسان، ولو كان الأمر متعلق بالعقوبة فإنها حاصلة لذلك المرتد إن لم تكن في الدنيا فستكون في الآخرة؛ حاله حال كل الذين طغوا وتجبروا في الدنيا ولم ينالوا عقابهم، لكن لأن الإسلام لا يهتم بمعاقبة الإنسان قدر اهتمامه بالمحافظة عليه كانت العقوبة في الدنيا.

إنها عقوبة مستعجلة ليفكر ألف مرة قبل خروجه من الدين بما ينتظره من جزاء نتيجة انسلاخه عن الدين.

إنها كذلك عبرة لغيره من المسلمين، وحماية لهم من فعل ذلك طالما أنهم شاهدوا ما يُفعل بمن خرج عن دينه.

إنها رحمة للإنسان من عذاب مخلد في الآخرة.

إن الدين من الضروريات الخمس التي أمر الإسلام بالمحافظة عليها، جنبًا إلى جنب مع المال، والعقل، والعرض، والنفس والتي يقيم بها الإنسان حياته في الدنيا؛ فكان حفظ الدين من باب أولى بالمحافظة ليقيم به حياته في الآخرة، فكيف يساعدك الإسلام على حفظ ما تُقوم به دنياك ولا يساعدك على حفظ ما تُقوم به آخرتك؟

ولذلك لو كان الإسلام يحارب الفكر لأجبر كل إنسان في بلد يفتحه بالدخول في الإسلام إلا القتل، لكنه لا يفعل ذلك، بل هو يفعل ذلك مع من كان مسلمًا ليراجع حساباته، ولذلك فإن الإسلام قبل قتل الخارج عن دينه يستَتِيبه ليعود لإسلامه، ولو عاد فإن الإسلام لا يعاقبه، ولا يشكم في انتماءه، أو يتهمه بالخيانة..لا، فليست القضية في العقوبة قدر ما أنها حمايةً لذلك الإنسان والتي تتحقق بالعودة.

هنا قد يأتي تساؤل آخر:

قد يؤدي حد الردة، ومحاربة الفكر وحرية المعتقد إلى وجود منافقين يبطنون الكفر ويظهرون الإيمان، أليس ذلك يضر بوحدة المجتمع ومدى صدق ابنائه؟

لنعلم بأن عدم إظهار المعتقد أو ما بداخل الإنسان أمر غير مرغوب بقدر ما أنه سيء؛ لكن كتمانه أحيانًا أفضل من إظهاره لنا، فكتمانه دلالة جُبن، وإظهاره يعني سهولة الدعاية للمعتقد وانتشاره بين الناس، ولعل من أبطنه اليوم يجعله يعيد حساباته وهو يخالط الناس فيعود إلى رشده، خاصة وأن له سابق عهد بالإسلام مما يعينه على ذلك.

إنها حرية الإسلام والتي لن يفهمها ولا يعرف حقيقتها إلا من تعمق فيه، وهذه مشكلة الذين يعتمدون على رؤوس أقلام في فهمهم للإسلام.

هنا تساؤل آخر :

طالما أن الإسلام هو الدين الحق، وهو دين الرب الحقيقي، وهو دين مقنع بحقيقته، فلماذا يتركه من ينتمي إليه؟

لنعلم بأن سبب ذلك ليس الدين بل هو الهوى.

نعم الهوى، لكن ما هو الهوى؟

ما مفهوم الهوى؟

الهوى هو سلوك إنساني داخلي، وهو ميل الانسان إلى ما يستلذه ويشتهيه، وقد تغيب عنه الرقابة فيُحدث ميلًا نحو الخطأ.

جميل جدًا، إذًا غياب الرقابة الداخلية هنا تجعل الإنسان يفعل ما يرفضه الضمير، فالضمير هنا هو الرقيب، وهو ما يحمله الإنسان من معتقدات وفضائل وضوابط لتقيم سلوكه وتصرفاته، والمعتقدات والقيم هنا قد تكون في الخير أو الشر، فلو كان هذا الفرد مؤمنًا بالله فإن الضمير هنا سيكون موافقًا لأوامر الله، لكن لو غلب الهوى وكان مسيطرًا على الإنسان فحتمًا سيسيطر على الضمير، وسيرضخ الضمير للهوى، وسيفعل الإنسان ما هو خارج عن الصحيح، ولا غرابة في أن يصل الأمر إلى رجوعه عن دينه، فلماذا إذًا نلوم الإسلام ولا نقيس الأمر بأداة القياس الصحيحة؟

إن سبب ملامة الإسلام هنا وأنه سبب ارتداد أبناءه عنه هي محاولات يُراد منها التشكيك في الإسلام لا أكثر.

أمر آخر بالنسبة للحرية وهو: لماذا الدين يوقف التساؤلات في بعض الأمور؟

أليس ذلك محاربة لحرية التفكير؟

قبل أن أجيب سأسألك:

هل تملك أنت إجابة لهذه التساؤلات؟

قد تقول سأبحث..

جميل أن تبحث لكن أعطني تساؤل.

لنقل مثلًا:

من خلق الله؟

هل تعتقد بأن فكرك سيجيب؟

و لذلك سأسألك سؤالًا آخرًا:

هل تستطيع ولو كنت أقوى رجل في العالم أن تقاتل كل من تراه أمامك؟

بالتأكيد لا، لأن قوتك محدودة، حتى و لو كنت تملك مسدسًا فإن ذلك سيعينك لحد معين، لماذا؟

لأن الله سبحانه أعطاك من القوة ما يعينك لتعيش بها في هذه الدنيا، ولتكون هذه القوة قابلة لأن تُبتلى، وكذلك الفكر؛ فإن الله أعطاك من الفكر ما يعينك لتعيش به في حياتك الدنيا، وليكون كذلك قابل للابتلاءات، لذلك لن أقول لك بأن إجابة سؤالك مفقودة؛ سواءً كان هذا السؤال أو غيره، فبالتأكيد أن الله عز وجل لو أراد أن ينزل في القرآن آية يكون فيها إجابة صريحة لتساؤلك بما يقنعك بأن الله هو الأول الذي ليس قبله شيء لفعل ذلك، ولن يعجزه ذلك، لكنه جعل ذلك في تأملاتك للآيات القرآنية، وفي هذا الكون، وكذلك جعل نثب هذه الأسئلة من مواضع التسليم والابتلاء.

ألسنا في الدنيا؟

أليست الدنيا دار اختبار؟

ألسنا نُبتلى؟

إن كل مبدع في هذه الدنيا يبتليه الله في إبداعه ليكون اختبارًا له في ذلك من جملة الابتلاءات التي يُبتلى بها، ولذلك هذه من الأسئلة التي يُبتلى بها الفكر، وللنجاة من ذلك وإيمانًا منا بأننا عبيد لله في هذه الدنيا لا بد لنا من أن نسلم الأمر إلى الله.

كذلك لا بد لنا من أن نعلم كذلك وقد تكلمنا عن ذلك بأن الله لا تسري عليه قوانيننا التي اكتشفناها، والتي نفرضها على كل شيء في هذا الكون، والتي منها أن نجعل لكل سبب مسبب، لسبب بسيط هو أن الله موجود قبل هذا الكون الذي خلقه، وبالتالي كيف نفرض على الله عز وجل قانونًا من قوانين الكون الذي خلقه وهو سبحانه قبل الكون وقوانينه؟

إنه لطالما فهمنا حقيقة الحياة فإننا بالتالي سنفهم حقيقة الحرية في هذه الحياة.

إن الإسلام بذلك لا يحارب حرية التفكير..لا، فليس الإسلام دين ديكتاتوري، بل هو قائم على السؤال، فالقرآن الكريم مليء بالأسئلة، بل وكذلك نبينا محمد ﷺ في مجالسته مع صحابته رضوان الله عليهم كان يسألهم، وكانوا يسألونه.

إن هنالك فرقًا بين كتم الأفواه وبين قياس قدرات الفكر، فالإسلام لا يكتم الأفواه عن السؤال، لأن من يكتم الأفواه هو العاجز عن بيان الحق لضعفه أو بطلان منهجه و نظامه، بل إن الإسلام يدعوا المسلم لأن يكون قويًا، يسأل، ويطالب، ويعرف أين هو، ولماذا هو هنا، وطالما أننا نبحث ونفكر سنصل إلى

إجابات تقنعنا وتدلنا، وكذلك سنصل إلى أسئلة نجد أنفسنا نتوقف عندها وهذا أمر طبيعي كما ذكرنا.

إن الإسلام لا يريد من المسلم أن يكون درويشًا في هذه الحياة فيضيع حقه، أو لا يستطيع أن يعبد الله كما أمر بحجة أنه لا سؤال، ولذلك من الخطأ أن نربط بين هذا وذاك.

إن الكثير من الحريات قتلها سوء فهم بعضنا للإسلام والإسلام من ذلك براء.

إنه دين الحريات، لكنها فقط الحريات الحقيقية لا المزيفة.

إن حفظ حرية الفرد في المجتمع هي حق من حقوقه طالما أنها لا تضر بأحد، ولا تحيد عن مراد الله، وإن في كبت الإنسان قتل له، فهو فرد من مجتمع له حق فيه بمعرفة ما يدور حوله، والمساهمة في ارتقاء ذلك المجتمع وإبداء وجهة نظره والمناقشة وتقرير المصير.

إن كبت الحرية هنا معناه أننا سنقدم جيلًا ضعيفًا لا يقدم لأمته ولا يرتقي بها، بل يجعل تلك الأشياء بيد إقلية تفعل ما تشاء، فينتشر الظلم، وتتعاقب على ذلك أجيالًا تألف ذلك الظلم، فتضيع الحقوق، بل وقد لا تعرف أصلًا بأن هنالك حقوق، فيعيشون

على هامش الحياة، يصنعون التطور ولا يستمتعون به، ليس لأنهم لا يريدون الاستمتاع بل لأنهم لا يفكرون فيه لأنهم يرونه ليس لهم.

لأنهم ارتضوا لأنفسهم عبودية البشر، ولأنهم رضوا بأن يعيشوا على هامش الحياة ليتركوا الحياة لنخبة أرادت ذلك، وعندها لن يكون هنالك تطورًا لأننا لا نستطيع أن نسميه كذلك.

إن مثل ذلك لا بد له وأن يؤثر على مسيرة المجتمع في يوم ما، ونرى نتيجته، لأن النفس بطبيعتها لا تحب الكبت، وتتطلع إلى الحرية والانطلاق، ولذلك نرى الكثير من الناس في المجتمعات تخرج عن طورها طالما أنها لم تُقدم لها تلك الحرية الحقيقية لا المزيفة.

إننا عندما نقول المجتمعات لا نستثني المجتمع الغربي منها، فهو كذلك يعاني من ذلك، والتاريخ شاهد، لأنه ينعم بحرية مزيفة كما ذكرنا، لكنها تختلف بالتأكيد عن غيرها من مجتمعات لاختلاف نسب الكبت

وعندما نقول حرية مزيفة فذلك لأن الكثير من الأنظمة تقدم حرية مزيفة على أنها حقيقة.

نعم، فنجد تقديم الملذات والملهيات على أنها حرية، يُضاف إليها بعض فتات من حرية حقيقية تشبه وضع الملح على الطعام فنظن أنها حرية حقيقية، لكنها مزيفة في حقيقتها، فنستمتع بها، ونطالب بالمزيد منها لا من الحقيقية عند احتياجنا للمزيد.

إن كمية الفتات التي تضاف من الحرية الحقيقية هنا هي الفرق الذي أوجد نسبة الكبت بيننا وبين المجتمع الغربي التي ذكرناها.

إنهم يقدمون الحرية كذلك حتى يغيبون الناس ويشغلونهم من أن يكون لهم دور في هذه الحياة، فهم يريدونهم كالعبيد لهم، لكنهم لا يعلمون بأن ما يفعلونه لن يطول، ولن يكون نهاية لما رسموه لهم، فالنهايات تصنعها فطرة البشر.

إننا لو بحثنا في كل أنظمة الدنيا لن نجد غير الإسلام يقدم حرية حقيقية للبشر، فتشعرهم بإنسانيتهم وبمكانتهم، لا على أنهم شحاذين أو دمى لعب.

2-الاحترام

ما هو الاحترام؟

ما مفهومه؟

بل ما مفهوم الحب؟

كيف نعرف بأن هذا احترام وذاك حب؟

قطعًا ليس الاحترام هو الحب، وليس الحب هو الاحترام، لكن ذكرتهما هنا لأن وجودهما مهم لتحقيق عدالة اجتماعية، فلن تتحقق عدالة اجتماعية على الأرض بعيدًا عن الاحترام وبعيدًا عن الحب.

لا توجد حرية دون احترام ودون حب.

لا توجد مساواة دون احترام ودون حب.

ولن يوجد تكافل بعيدًا عن الاحترام وبعيدًا عن الحب؟

إن الاحترام هو تقدير تظهره لشخص ما أو لمنظومة ما فيولد طمأنينة لدى كل الأطراف بأننا سنتعامل مع بعضنا على أننا بشر.

نعم، قد يكون الحب مع غير البشر، لكن الاحترام لن تستطيع الحصول عليه إلا من بشر، ولن تستطيع تقديمه إلا لبشر.

إنه باختصار الباب الأول لكل العلاقات الاجتماعية بين الناس.

قد يكون الاحترام غير صادق في بعض أحيانه، وقد يفعله صاحبه ضرورةً لتحقيق هدف ما، لكن الحب قطعًا لن يكون كذلك.

نعم، فالحب هو ميل عاطفتك بصدق نحو شخص ما واستسلامها له.

الحب هو تسليم واستسلام.

قد يحب المرء أحيانًا لأنه يحب، و قد يحب لأنه يريد أن يحب، وهذا ما نسميه حب تملك، ويحضر فقط عندما يغيب عنه الاحترام.

إن من يقود الاحترام هو العقل، ومن يقود الحب هو القلب والعقل، ولو اجتمعا في إنسان فستمتزج الصفتين في صفة إنسانية رائعة.

إنه لمن الخطأ أن نقول بأن الحب يقوده القلب فقط، فالعقل يحضر أحيانًا وليس دائمًا، لكن المشكلة تكمن في حضور العقل المتأخر.

إن العقل عندما يتأخر فإنه يخسر أمام القلب، وعندها يكون لذلك القلب السيادة والسيطرة.

لنعد إلى موضوعنا ولنعلم بأن وجود الاحترام والحب هو تكامل لتلك العدالة الاجتماعية، و هو الذي سيساهم في تحقيق مبادئ حقيقية لتلك العدالة.

نعم، قد تتحقق عدالة اجتماعية بعيدًا عن الحب، وعن الاحترام، لكنها قطعًا لن تحقق الكمال بعيدًا عنهما، ولذلك دعا الإسلام إلى نشر الاحترام والحب بين أبنائه ليكون ذلك قوة للعدالة الاجتماعية، ولم ينشرها فقط بينهم، بل أقام تلك العدالة الاجتماعية محبة للكائن البشري، و احترامًا له.

وعندما نقول الكائن البشري فمن باب التغليب فقطعًا كذلك نقصد الجان، والذين هم بيننا ومعنا في هذا الكون، ومطالبين كذلك بالعبادة.

إن المنظومات مطالبة بأن تحقق الاحترام والحب في ذاتها لأبنائها قبل نشر ذلك الاحترام وذلك الحب بين الأبناء، لأنها بذلك ستتقن تقديم تلك العدالة الاجتماعية.

إن الكثير من الأنظمة لا تريد تحقيق عدالة اجتماعية لأبنائها لكنها تضطر إلى تحقيق جزءًا منها حتى لا تقع في حرج، فتقدم ذلك البعض بلا احترام أو حب، فيشعر أفرادها بالذل، أو تشعرهم بفضلها عليهم وأن ذلك منةً منها لا حق من حقوقهم، وهذا من أسباب عدم نجاحها في تقديم تلك العدالة أو الارتقاء بمبادئها.

إن الإسلام نجده يعفو في الكثير من المواقف، ويُكفر عن أبنائه، بل ويساعدهم، لأن دافعه الحب لا السلطة، فقدم المبادئ وصنع العدالة التي لن يصنعها غيره بتلك الرحمة والاحترام والحب.

إن الاحترام والحب لا يكون فقط عند تقديم تلك المبادئ، بل حتى في تقدير المنظومة لأبنائها بزراعة القيم الفاضلة ونشرها فيما بينهم، والدعوة إلى العناية بها.

إنه ارتقاء لن يتحقق إلا في منظومة تريد الارتقاء حقًا بأبنائها، لا أن يكونوا دمى من أجلها فلا تهتم بذلك الرقي.

إن التكافل والذي سنتكلم عنه في السطور القادمة هو ترجمة حقيقية لمعنى الاحترام والحب الذي وضع ضوابطه الإسلام.

3-التكافل

تعيش المجتمعات حياة مدنية مليئة بالمتطلبات والاحتياجات الضرورية لتستمر الحياة لأبنائها.

كل المجتمعات بحاجة لتلك المتطلبات، حتى مجتمعات البادية والقرية، فكان التعاون والتكافل بكافة صوره بين أبنائها، وكم من مجتمع سقط طالما غابت تلك الروح.

كلام جميل لكن ما مفهوم التكافل؟

التكافل هو التعاون والتآزر، وهو رابطة اجتماعية روحية راقية وتضامنية بين أفراد المجتمع، ومساعدة بعضهم البعض لمواجهة الحياة.

هل للتكافل شروط معينة؟

هل له ضوابط معينة؟

هل لا بد أن أكون فقيرًا ليتحقق لي التكافل؟

تكافل المجتمع لا يحتاج فقرًا ليتحقق، فليس هو ماديًا فقط، بل هنالك تكافل معنوي، فاحتياجات الحياة ليست مال فقط، وإن كان هو الاحتياج الأساسي في هذه الحياة للحصول على الغذاء والأمان.

جميل جدًا لكن هل للتكافل مقابل؟

هل هو مجاني، أم بثمن؟

لو كان بلا مقابل ومجاني فكيف سيكون ذلك؟ هل يقدم الإنسان شيئًا بلا مقابل؟

ولو كان بمقابل لما نسميه تكافل؟

من سيقدمه؟

لم لا نعتبره مثله مثل باقي الخدمات؟

بالتأكيد.. لا، لن يقدم الإنسان هذا التكافل للمجتمع بل ستقدمه المنظومة والنظام القائم على المجتمع للمجتمع.

كيف ذلك؟

لماذا المنظومات هي من تقدم التكافل؟

أليس الإنسان هو من سيساعد أخاه الإنسان؟

أليست الدوافع الأخلاقية هي من ستحقق التعاون والتكافل؟

قد تقول نعم لأن أخلاق الإنسان تدفعه للتكافل بلا مقابل، وهذا أمر غير صحيح، لأن الأخلاق تريد مقابل لكن كيف ذلك؟

أليس الإنسان عندما تقوده أخلاقه يشعر بالرضا؟

إذًا هو المقابل، لأن الشعور بالرضا وبراحة الضمير هو ما يجنيه من يعمل لأجل الأخلاق، وهذا يقودنا إلى أن التكافل القائم على الأخلاق له مقابل، وإن كان ذلك المقابل غير محسوس، لكن لا نستطيع أن نعتمد على الأخلاق لبناء تكافل يضمن للناس حياة كريمة بسبب أن الرضا لن يكون هو المقابل الذي يرضى به كل من قدم خدمة في هذا العالم المادي.

ثم هنالك أمرًا آخرًا يدعم أن الأخلاق لن تحقق التكافل للمجتمع، و هو أن الأخلاق ليست جبرًا على الإنسان أن يلتزم بها دائمًا، وبالتالي لن تصل إلى التكافل المطلوب، أو أن تستمر على وتيرة معينة تدعم استمرارية التكافل، وهذا بالتأكيد سيؤثر على التكافل وبقاءه، ولذلك ومما سبق نجد أن التكافل بحاجة إلى عمل مؤسسي لتحقيقه لا إلى أفراد، وإن كان الأفراد هم من يعملون على تحقيقه داخل العمل المؤسسي أو حتى خارجه، وإن كان دعم و تكافل الأفراد فيما بينهم عاملًا مساعدًا لكنه

بالتأكيد غير كافي، ولذلك عملت الكثير من الدول على تحقيق نظام تكافلي لأفراد مجتمعاتها، لكن هل نجحت في ذلك؟

إن الدول أرادت صناعة تكافل حتى تحقق العدالة الاجتماعية لأفرادها وتؤمن لهم حياة طيبة، لكنها ما نجحت ذلك النجاح الكبير لأسباب عدة أهمها وضع شروط معينة؛ ساهمت تلك الشروط في حرمان أفراد من المجتمع من هذا التكافل فكيف يحصل عليه من لا توجد لديه ضمانات كافية تثبت أحقيته؟ أو من لا يملك هوية شخصية فقد الحصول عليها نتيجة ظروف خاصة أو اتفاقيات دولية أو تنظيمات حدودية؟ بل كيف يحصل على هذا التكافل من لا ينتمي إلى جماعة معينة؟ أو أن المجتمع يرفضه كما يحدث في بعض المجتمعات مثل أنه لن يفيد في المستقبل؟ فثمن ما سيحصل عليه لن يسدده الفرد وبالتالي سيكون دينًا عليه، وهنا لن نفقد هذا المبدأ فقط بل كذلك سنفقد المساواة.

بل قد يُقدم هذا التكافل لأفراد المجتمع منةً أو أن يكون بمقابل الحصول على دعم، أو تصويت، أو تأييد للقائ، كما يحدث في بعض دول الشرق الأوسط والعالم الثالث، أو مقابل استغلال البشر بكافة ظروفهم أطفالًا وفقراءً نساءً لتحقيق أهداف معينة

و لو على حساب كرامتهم، وهنا يقدم ذلك التكافل عندما يفقد مبدأ احترام المنظومة لأبنائها وقد تحدثنا عن ذلك.

بل قد يفقد هذا التكافل قيمته لو كان له مقابل يدفع كضرائب أو رسوم تفرضها الدول على كل من يقيم فيها بمسميات أو طرق مختلفة مباشرة أو غير مباشرة، وهنا لن يتحقق التكافل طالما يدفع من ينتمي للمجتمع مهما كانت صورة ذلك الدفع، لأن الأفراد ببساطة هم من ينتظرون من أن يُقدم إليهم لا هم من يقدمون لهم، لأن الثروات تستخرج من الأرض لا من الإنسان.

إنه عندما يُقال بأن الإنسان هو الثروة الحقيقية لبلد ما فليس معنى ذلك أنه يقدم لها دون أن يأخذ.. لا، لكن معنى ذلك أن الإنسان هو من تقوم به البلاد وبدونه لن تكون، فهو من يحميها ويعمرها ويأكل من ذلك الإعمار، و الأعمار هنا له صور شتى.

كذلك من الخطأ أن نسمي بعض الصور في المجتمعات على أنها من التكافل، فقد يكون التكافل حاضرًا في صورة تأمين صحي أو اجتماعي، وهذا كذلك قد يكون له مقابل لن يستطيع عليه الفقراء أو الذين لا يعملون؛ والذين هم الهدف الأول من هذا التكافل.

حتى الديانات ما استطاعت تحقيق ذلك التكافل بسبب أن ليس لديها برنامجًا شاملًا لتحقيقه، وتُعذر في ذلك، فهي لم تستطع أن تجد لها مكانًا في الحياة كما تحدثنا عن ذلك سابقًا فكيف بتحقيق تكافل اجتماعي.

لكن أين الإسلام من التكافل؟

هل عجز الإسلام عن تحقيق ذلك؟

إن التكافل كما ذكرنا لن يحققه الأفراد وحدهم ولا بالتالي الأخلاق، بل هو بحاجة إلى قانون يكفله للأفراد، وهذا ما جاء به الإسلام.

إن الإسلام صنع نظامًا تكافليًا اجتماعيًا لأفراده بما يضمن لهم عيشة كريمة، وهذا النظام وحتى لا يكون خيارًا يُفقد في وقت من الأوقات فيحدث خللًا ألزم الإسلام فئات من أبنائه نظامًا وشريعةً إلى الالتزام به، كالأغنياء بإخراج زكاتهم للفقراء، والأصناف الأخرى المستحقة لذلك، ولو تم إخراجها بصورة صحيحة لتحقق الاكتفاء وهذا ما حدث في عهد الخليفة عمر بن عبدالعزيز كمثال، وقبل ذلك في عصر الخلفاء الراشدين، هذا من الباب الإلزامي التنظيمي، كذلك فتح لهم باب الصدقة وهو

باب اختياري أخلاقي، يسارع فيه الناس للخير، وهذا ما يسمى بتكافل الأفراد.

لكن هنالك سؤال:

ما هو المقابل ؟

ألا يعتبر إجبار فئات من المجتمع بدفع مبالغ معينة من أموالهم إجبارًا لهم، وأكلًا لأموالهم؟

ألا يعتبر ذلك ظلمًا لهم؟

مالفرق في ذلك بين الإسلام وبين الأنظمة الغربية؟

لماذا نقول بأن الدول والمنظومات مسؤولة عن تحقيق تكافل اجتماعي والإسلام يستخرجه من أبنائه؟

لنعلم بأن الله عز وجل خلق البشر وأمرهم بعبادته، ونظم لهم حياتهم وكفلها لهم، وأعطاهم الحرية فيما يملكون، وخلق سبحانه الناس متفاوتين في الإمكانات والقدرات لتستقيم الحياة من باب، وليبتلي الناس فيها طالما أنهم في الحياة الدنيا.

من هذه التنظيمات التي وضعها الإسلام التكافل، والذي هو جزء من العدالة الاجتماعية في الإسلام، ليعيش كل من يقيم على أرض الإسلام حياة كريمة تُكفل فيها الحقوق، وعندما

نقول كل من يقيم على أرض الإسلام فهنا لإلغاء كل أشكال العنصرية والتفرقة.

إن الإسلام يؤمن بالتعددية والمشاركة لكافة أطياف البشر، فتطور وارتقى ولم يضع الحدود للتفرقة كما هو مشاهد الآن، والتي أضرت بالمجتمعات وبالأفراد، والتي لم تكن إلا لتحقيق أهداف المستعمرين في شل المجتمعات المسلمة.

صحيح أن للمسلم ميزات وسنتكلم عن أسباب ذلك عند حديثنا عن المساواة، لكن حقوق الأبيض هي نفسها حقوق الأسمر، ونفس حقوق العربي هي نفسها للأعجمي، فلا لون ولا لغة ولا غير ذلك، ومعروف أن المجتمع فيه التاجر الذي يملك المال، والفقير، وابن السبيل، واليتيم، وغير ذلك ممن وضعهم الاقتصادي أقل، أو ممن هو مهدد بدين، أو غير ذلك، فهنا لا بد من كفالة ذلك المحتاج أيًا كان مسماه، فيُعطى ما يعينه، حقًا كفله الإسلام لا تكرمًا ومنة.

وعندما نقول بأنه كيف نأخذ مال ذلك الغني لنعلم أنه لو تأملنا في ذلك لوجدنا أنه حق بسيط أخذه الإسلام منه وفق شروط حددها و لم تفرض هباءً، فمثلًا من يملك بستانًا ويستفيد من ماء المطر لا يدفع مثل الذي يشتري الماء ليسقي زرعه، والدفع هنا

بسيط جدًا بين العشر ونصف العشر، وليس على كل الزروع بل في أصناف معينة، وليس أي كمية بل عندما تصل إلى كمية معينة، أما دون ذلك فلا، وقس على ذلك بقية الأموال والممتلكات بل أن هنالك ممتلكات ليس فيها زكاة.

إن النظرية هنا باختصار هي مال الفقراء موجود عند الأغنياء يدفعوه للإسلام ليعطيه للفقراء وفق نظام لإخراجه يسمى زكاة.

إن الأموال والثروات التي جعلها الله على الأرض بالتأكيد تكفي كل البشرية، بل وكل المخلوقات في هذا الكون، لكن المجاعات سببها سوء تقسيم البشر وعدم التزامهم بشريعة الله في اتباع خطوات حصول البشر على حقوقهم.

كذلك لنعلم بأن زكاة الأموال ليست هي فقط من يتحقق بها التكافل، إنما هي مصدر من المصادر، فموارد المسلمين جميعها تحفظ في بيت مال المسلمين وتخرج لأبنائه جميعًا، وكما ذكرنا دون تفرقة أو محسوبيات.

هنالك تساؤل:

قد يقول قائل بأن الزكاة تشبه الضرائب، فكلاهما أخذ أموال، وكلاهما قد يراعي أحوال فئة معينة.

حسنًا، في نظام الضرائب والذي تفرضه الدول قد يُعفى منه بعض الناس من أصحاب الدخل المحدود، لكنه بالتأكيد لن يُعفي منه غيرهم، هذا إن كان هنالك إعفاء لفئة معينة، وإن كان في حقيقته إعفاءً صوريًا أو غير مباشر، لأن أصحاب الدخل المحدود سيدفعوه للتجار لو لم يدفعوه للأنظمة، والتي ستأخذه من التجار، وهم بأخذهم لهذه الضرائب يجعلونها مقابل خدمات تقدمها لهم، وهذا يعني أن كل شيء عند تلك الأنظمة بثمن بعكس الإسلام الذي يرى بأن لأبنائه الحق بالتمتع بالثروات دون مقابل، وهو عندما يأخذ من أموالهم زكاةً فهي بمقابل يدفعه الإسلام لمن دفع تلك الزكاة، وهي بأجور تنفعهم في آخرتهم، فهي كرصيد حسنات يزداد ويتضاعف ليُسهم في دخولهم الجنة، وهم بالتأكيد بحاجة لتلك الجنة التي هي دار القرار الحقيقية للإنسان، فكما أن الإنسان في الدنيا يدخر أمواله لتنفعه في مستقبله، فكذلك يفعل المسلم بالنسبة لجنته، ولذلك نقول أبدًا لا يستويان، فالضرائب أكل أموال الناس بالباطل، وقد يتعدى ذلك إلى فرض أموال وجبايات على الناس بمسميات أخرى مختلفة، أو على أنها خدمات، أو حتى تدفع بطرق غير مباشرة كما ذكرنا، فهل يعقل أن يدفع الفرد فاتورة بقاءه على هذه الأرض؟

إن الزكاة التي تفرض على الأغنياء للفقراء هي لأن الغني هو من يملك البساتين والتجارات ويقوم بإدارتها، وأن للفقير حق فيها، والحق هنا من الله بسبب استفادة الغني هنا، ولذلك هي تؤخذ بحسب استفادة الغني، وقد تكلمنا عن ذلك في سقيا الزرع كمثال، فكانت عليه الزكاة اعترافًا من الإسلام بتملك الغني لكل تلك البساتين والأملاك والتجارات، والإسلام هنا يأخذ الزكاة للفقراء تنظيمًا على أثر ذلك، وهو هنا واسطة بين الغني والفقير والأصناف الآخرين الذين يستفيدون من الزكاة، وليس له شيء من ذلك، بل وضع أجورًا للأغنياء قد تحدثنا عنها سابقًا، بينما الأنظمة تفرض الضرائب على الناس لتأخذه لها، بل وتضع رسومًا على قبض تلك الضرائب.

كذلك هنالك أمرًا لا بد أن نفهمه جيدًا وهو أن ما يقع من مشكلات كفقر وغيره على هذه الأرض ليست بسبب الظروف أو ضعف الناس في العمل بالأسباب لتحصيل الرزق.. لا، إن كل ذلك بسبب ظلم من يدير تلك الأمور على الأرض وتسلطهم، ولو قام كل من تولى أمر الناس بدوره في تحقيق عدالة اجتماعية، ثم بعد ذلك النظر في حال الفقراء وأعطاهم حقهم الشرعي من الزكاة وغير ذلك من بيت المال لما حدثت

تلك المشكلات الاقتصادية، وهذا المثال بالتأكيد ينطبق على شؤون الحياة الأخرى.

إنها عدالة لن يفهمها ظالم.

إنه نظام إسلامي كامل حفظ للناس حقوقها.

إن النظام المالي العالمي في هذا العصر لم يبخس الناس حقوقها فحسب، بل وجعل أصحاب الثروات كالموظفين.

نعم، فهل يعقل بأن ما يملكه المرء قد يأتي يوم لن يكون له قيمة، فليس ما يملكونه ذهب و لافضة، بل استبدلها لهم النظام العالمي بأوراق بنكنوت تسقط بسقوط الأنظمة التي تنتمي لها كسقوط اوراق الخريف، فهل يعتبر ذلك حفظًا للحقوق أو حتى احترامًا لأموال الناس؟

لما لم يفعل ذلك الإسلام؟

لما تم تحريم الربا؟

لما تم تحريم بعض المعاملات التجارية؟

كل ذلك رحمة بالفقير، وحفظًا لمال الغني.

لنأتي لمسألة مهمة:

كيف يتحقق التكافل الاجتماعي في بيئة بنيت على التفرقة؟

ألا يعتبر من التفرقة التقسيم بحسب الدين والذي هو كذلك ضد المساواة التي يدعوا إليها الإسلام ويسعى لتحقيقها؟

كيف يدعي الإسلام ذلك وهو يمنع المسلمة من الزواج من اليهودي والنصراني بينما يجيز للمسلم من الزواج من اليهودية والنصرانية، بل ويمنع كل أبنائه ذكورًا وإناثًا من الزواج من غيرهما؟

كيف تقولون لا تفرقة وأنتم تمنعون كل من لا يدين بالإسلام من الإقامة في جزيرة العرب؟

كيف تقولون لا تفرقة وأنتم تفرضون جزيةً على الكفار في بلاد المسلمين؟

لنعلم أولًا بأن الإسلام جاء ليسود العالم، ليس من أجل السيطرة لكن من أجل إقامة حكم الله على الأرض، وهنالك فرق بين إقامة حكم الله على الأرض وبين إجبار الناس على الإسلام، وقد تكلمنا عن ذلك، فإقامة حكم الله على الأرض ليعيش الناس أيًا كانت دياناتهم تحت ظل الإسلام، والذي هو الدين الحق من رب العالمين، وعندما يكون ذلك الفرد تحت حكم الإسلام لن

يجد موانع أو منغصات تمنعه عندما يريد الدخول إلى هذا الدين، وعلى ذلك وضعت تلك الأمور التي ذكرتها، والتي هي من أجل لإنسان.

نعم من أجل الإنسان فطالما أن السيادة للإسلام ففرصة دخول الإنسان للإسلام كبيرة.

إن المسلم عندما يتزوج اليهودية أو النصرانية فإن إدارة البيت تكون له لأنه الرجل، وله القوامة، وبالتالي تأثيره في البيت أكبر، وعلى ذلك ففرصة أن يكون أبناءهما مسلمين كبيرة جدًا، بينما لو تزوجت المسلمة من اليهودي أو النصراني فإن القوامة وإدارة البيت بيد زوجها، مما سيسيطر على البيت دينيًا غير الإسلام، وعلى ذلك ففرصة أن يكون أبناءهما على الإسلام ضعيفة.

أما تحريم الزواج من غير اليهودية والنصرانية فلأنهم ليسوا من أهل الكتاب، ولا يؤمنوا بوجود الله فهنا تضعف فرصة أن يعترفوا بوجود الرب أصلًا.

أما عن عدم إقامة كل كافر مهما كانت ديانته في جزيرة العرب فلأن جزيرة العرب والتي هي من البحر الأحمر غربًا إلى الخليج العربي شرقًا، ومن بحر العرب جنوبًا إلى حدود الشام

والعراق شمالًا، هي مركز الإسلام، فلو اختلط فيها الكفار مع المسلمين لضعفت شوكة الإسلام فيها، ولصعب إعادة المسلمين إلى دينهم لو حدث أمر ما بسبب ذلك الضعف، فهي مركز الإسلام، وانطلاق رسالته، ولذلك نجد أن الإسلام يمنع الكافر من الإقامة فيها فقط، لكنه لا يمنعه من الإقامة في غيرها من الأراضي الإسلامية.

أما الجزية هنا فكما للزكاة ضوابط فكذلك للجزية ضوابط، فهي لا تؤخذ من كل كافر، بل لا يدفعها الكافر لو كان امرأة أو طفلًا، أو طاعنًا في السن، أو حتى شابًا لا يعمل، بل للكافر حق في مال المسلمين طالما أنه يقيم معهم وكان محتاجًا لذلك فيعطى ما يقيم به حياته و حياة أبنائه بلا مقابل يدفعه مستقبلًا، وهذا من التكافل الذي أمنه الإسلام حتى مع غير أبنائه.

لنعلم بأن كل ذلك فقط من أجل أن يبقى العلو للإسلام لا من أجل تفرقة.

إنه و بعد كل ما ذكرنا نسأل:

هل هنالك دينًا أو نظامًا كفل لغير أهله كل ذلك؟

هذا فقط في الجانب المالي، أما في الجوانب الأخرى فقد كفل تنظيم العلاقات بين الناس فيما بينهم، وقد يقول قائل كل الأنظمة حفظت الحقوق.

نعم قد تكون حفظت الحقوق كما تدعي لكنها لم ترتقي بها.

نعم، لم ترتقي بها لأن كل الأنظمة غير الإسلامية التي تدعي حفظ الحقوق حمت حقوق الناس من أن يعتدي بعضهم على بعض لكنها لم تطورها ليحب بعضهم البعض كما يفعل الإسلام، والتطوير هنا هو في وضع ضوابط من الأجور والعقوبات لاستمرارية ذلك النوع من التكافل لا الدعوة إليه فقط.

أين الدعوة للإحسان إلى الكبير؟

أين الدعوة إلى العطف على الضعيف؟

أين الدعوة لزيارة الأقارب؟

أين الدعوة لتوطيد العلاقة مع الجار؟

أين الدعوة للصفح و العفو؟

أين الدعوة للابتسام في وجوه من حولك؟

أين العقوبة لمن عق والديه؟

أين التحذير من الإساءة للطريق؟

أين التحذير من الغيبة و النميمة؟

كل ذلك وغير ذلك لن تجده في أنظمتهم.

إن كل ما ذكر يرتقي بالتكافل وبالتالي يرتقي بالمجتمع، فهل لديهم نظام تكافي مثل النظام الذي هو عند الإسلام؟

إنه دين تكاملي أوجده من أوجد الحياة، فكان ذلك التكافل ارتقاءً بالحياة، ولن يتحقق تكافل يرتقي بعيش الإنسان على هذه الأرض بعيدًا عن نظام الإسلام.

إنه دين الله في أرض الله.

4-المساواة

عندما نتحدث عن المساواة وأن يكون البشر سواسية ليس معناه أننا نريد أن نراهم جميعًا على مستوًا واحدًا، و إن كنا نتمنى ذلك، لكنها سنية الحياة الدنيا، فلن يقوم المجتمع دون وجود فروقات ليستفيد الناس من بعضهم البعض، ولن يتحقق ذلك طالما أن الحياة ابتلاءات، لكن معنى ذلك هنا هو أن يُعطى جميع الناس بمختلف ثقافاتهم نفس العدالة والحقوق، ويبقى ما يميز بعضهم البعض هو ما يملكونه من قدرات وإمكانات.

سؤال:

ما مفهوم المساواة؟

هل المساواة في أن نقسم التفاحة نصفين؟

جميل أن نقسم التفاحة نصفين وهذا الذي تنادي به جميع منظمات العالم ماعدا الإسلام.

ماذا؟!

هل معنى ذلك أن الإسلام ضد المساواة؟

للإجابة على ذلك لنفترض أن لديك مجموعة من الفواكه:

موز، وتفاح، وبرتقال، وعنب.

لو كانت سبع برتقالات تساوي كيلو واحد، فهل من المساواة أن نقول بأن سبع حبات عنب تساوي كذلك كيلو واحد؟ وهكذا بقية الفواكه دون أن نضعها على الميزان؟

إن المساواة هي ميزان يعطي كل ذي حق حقه.

إن البشر تختلف، والقدرات تختلف، وكل شيء يختلف، والصحيح أن نراعي كل الاختلافات هنا وفي كل مكان، وهذا هو العدل.

إنها ليست يمينية، ولا هي كذلك ضد اليسارية، ولذلك نقول بأن المساواة هي خلق جميع الفرص للبشر بحيث يستطيعوا الحصول عليها لتحقيق النجاح.

المساواة هي عدم حرمان أحد من حقه تحت أي مسمى، والحق قد يختلف حجمه باختلاف طبيعة البشر، المهم أن يحصلوا على حقوقهم كاملة من العدل والثروات وخلق الفرص وتأمين الحياة

الكريمة لهم، وبعدها ليتفوق بعضهم على بعض، فتلك قدرات تختلف، وذلك فضل الله، وتلك سنية الحياة كما ذكرنا.

إن الأنظمة والمنظمات عجزت عن تحقيق المساواة بسبب تقصيرها في تحقيق المبادئ الأخرى للعدالة الاجتماعية، فلا هي حققت تلك الحرية الحقيقية، ولا هي أرادت الاحترام، ولا بنت ذلك التكافل.

إن المساواة في الفتات ليست مساواة حقيقة، يجب أن نقر بذلك ونحن نرى تلك المنظومات التي توهم أبنائها بسعيها للمساواة.

إن المساواة هي في أن نأخذ أنا ومن بجواري حقنا كاملًا، وننال نفس السقف من الحقوق، ولنجتهد في استغلال الفرص بعد ذلك، ولذلك لم يكن الإسلام مثل تلك المنظومات.

لم يرد الإسلام أن يوزع الفتات على من هم في منظومته، بل أراد لهم أن يعرفوا المقدار الحقيقي لحقوقهم، فيحصلوا عليه بمراد الله.

إن الإسلام نجح في تطبيق المساواة.

نجح لأنه عندما قسم بينهم تلك الحقوق لم يجعل لنفسه جزءًا من تلك القسمة، ولذلك لم يكن هنالك فتات وهنا مكمن الفرق.

لم يكن الإسلام يومًا منظمة ديكتاتورية أو جبروتية حتى تفرض أنظمتها بقوة المال فأبقته لديها لامتلاكه أو توزيعه بطريقتها بما يضمن بقاءها، بل هو نظام يستمد قوته من عدالته، فراعي الحقوق، وبالتالي لا يوجد أفضل من الإسلام في تطبيق المساواة.

إنها مساواة حتى بين الرئيس والمرؤوس، فلا يوجد أحد فوق القانون، بل الكل سواسية لو فهم كل منهما دوره الحقيقي في المجتمع، فالعلو بينهما هنا هو علو عملي ينتهي بانتهاء العمل، لكن القيمة الإنسانية تبقى، وبالتالي تحققت المساواة.

بل وحتى المغفلون الذين لا يحميهم القانون الوضعي نجد أن الإسلام يساوي بينهم وبين الأذكياء، ومن أمثلة ذلك بيع الغرر الذي يُخدع فيه الناس، وهذا كمثال.

سؤال مهم:

كيف تقولون بأن الإسلام دين المساواة وهو يفرق بين من يقيمون على أرضه وفق دياناتهم؟

لنعلم بأن الإسلام؛ وقد تكلمنا عن ذلك؛ ميز المسلم؛ وذلك لأن دينه هو الدين الحق، وليرى غيره عزة الإسلام فيكون سببًا

لإسلامه، لا كما تفعله بعض الأنظمة من أنها تجعل العزة لأبنائها عن غيرهم من أجل تمييزهم ومن أجل أن تشعرهم بالأفضلية لا أكثر، و هي هنا تفعل ذلك فقط من أجل أن تغطي على تقصيرها في تقديم الخدمات لأبنائها، ولتبين أن من لا ينتمي إليها يعاني من أجل ذلك، وهذا بالتأكيد تدليس لا شك فيه.

لنعلم في المقابل بأن قرار الانتماء للإسلام قرار يحدده الفرد لا الإسلام، ولذلك يميز الإسلام أبناءه من أجل أن يجذب غيرهم إليه.

إنه يريد أن يبقى قويًا ليشعر غير أبنائه من أن الأمان مع الإسلام وأن العزة بالإسلام.

إنه دين الرحمة فهو لا يريد أن ينتمي غير أبنائه إليه من أجل زيادة العدد.. لا.

ولا للتباهي بهم.. لا.

ولا لجذب الأموال منهم.. لا.

إنه من أجل أن ينجو ذلك الإنسان من عذاب النار.

إنه ورغم ذلك لا يظلم من لا ينتمي إليه أبدًا ورأينا ذلك بالتفصيل عند حديثنا عن التكافل.

كذلك ساوى الإسلام بين البشر بمختلف طبقاتهم الاجتماعية، ولم يميز بينهم، بل أن الإسلام أقر التعددية في المجتمع والمشاركة لكافة أطيافه كما ذكرنا ذلك في التكافل باستثناء جزيرة العرب، وقد بينا سبب ذلك عند حديثنا عن التكافل أيضًا فكان مجتمعًا منتجًا راقيًا، وهنا قد يحضر السؤال:

لماذا الإسلام إذًا يشرع نظام العبودية بين البشر طالما أنه يدعوا للمساواة؟

إن الإسلام نظم العبودية ولم يوجدها، فهي موجودة بالأصل، وكان فيها امتهان للعبد.

إن العبودية هنا هي علاقة بين عبد وسيده، والسيد هنا بامتلاكه لعبده ليس من السهل أخذه منه هكذا وتحريره، فهو مال اشتراه أو امتلكه ولا بد من حفظ الحقوق، ولذا سلك الإسلام مسلكًا آخرًا للتخلص من العبودية فكان العتق والدعوة إليه، بل وجعل العتق كفارة للكثير من الخطايا التي يفعلها المسلم، بل ودعا الإسلام إلى مساعدة العبد أو الجارية على عتق نفسيهما ودعا لمساعدتهما بالمال.

كذلك وخلال وجود العبد أو الجارية عند سيدهما أو سيدتهما أوصى السيد والسيدة بأن يطعماهما ولا يظلماهما، بل ولا يسيئا

إليهما، فالعلاقة بيتهما ليست عبادة وخضوع كامل، بل هي طاعة، ولو أساء السيد أو السيدة للعبد أو الأَمة فإن الإسلام يقضي إلى عتق العبد أو الأَمة، وهذا يدل على رحمة الإسلام بهما وأنه يراعي أحوالهما ويقف معهما ضد الظلم.

لنعلم بأن مجالات الرق في الإسلام قليلة جدًا مقابل العتق، وفي الجانب الآخر نجد أن العالم الغربي الذي يدعي محاربة الرق لديه عنصرية واضحة تجاه طوائف وسلالات كثيرة تصل لحد الإبادة، والأمثلة كثيرة فأين الرحمة هنا؟

أما بالنسبة للرق في الحروب مع الكفار فهذا أمر طبيعي من أن يكون هنالك أسرى، فالقضية حرب وإثخان في العدو، وبمقياس العقل أن يكون الأسرى عبيدًا وإماءً في الإسلام خير لهما من أن يُقتلا على الكفر، فهما على الأقل سيعيشان تحت نظام الإسلام وإن لم يسلما مع تمتعهما بكافة حقوقهما التي لن تُلغى ولو كانا من أسرى الحروب، وعندها لعل قلبهما يرق للإسلام، وذلك خير لهما من البقاء في نظام الكفر أو الموت عليه كما ذكرنا، ثم كذلك لا بد أن نعلم بأن ذلك خير حتى في قضية استعادة أسرى المسلمين.

هنالك تساؤل مهم:

لماذا الإسلام لا يساوي بين حقوق الحر والعبد أو الحرة والأَمة؟

لماذا للعبد وللأَمة نصف الحقوق؟

هذا تساؤل مهم، لكن هنا لا بد أن نعلم بأن الإسلام لم يفرق بين الحر والعبد أو الحرة والأَمة، فكل منهما له تمام الإنسانية، وقد يكون عبدًا أو أَمةً هما أفضل عند الله من حر أو حرة، بل قد يكون ذلك العبد أو تلك الأَمة في مقام أعلى في الجنة في اليوم الآخر، إنما التفرقة المذكورة هي في الأحكام الفقهية حيث أن العبد أو الأَمة لا يملكان حرية كاملة أو مال كافي، ولذلك أسقط الإسلام عنهما بعض العبادات كالحج أو الزكاة مثلًا، وكذلك في العدة والدية لأنهما طالما لا يملكان حرية كاملة فمن العدل أن يكون التخفيف رحمة بهما ولغيرهما، والأمر فيه خلاف فقهي، بل لنتأمل هنا هذا الأمر والذي ستتضح فيه الصورة بشكل أكبر وهو أن خطأ الحر أو الحرة أشد من خطأ العبد أو الأَمة، ولذلك العقوبة أو الحد تكون على الحر أو الحرة أشد منها فيما لو كانت على العبد أو الأَمة، وهذا يدلنا على أن الإسلام لم ينظر للأمر من زاوية عنصرية وإلا لكان خطأ العبد أو الأَمة هنا أشد

وهذا هو قمة العدل والإنصاف في الإسلام لا كما يروج له البعض من أنه امتهان واحتقار.

لنعلم بأن الإنسان يعيش بطبيعته في مجتمع بشري، والمجتمع البشري ليستمر بحاجة إلى توزيع أدوار أفراده توزيعًا عادلًا يُنظر فيه إلى مصلحة ذلك المجتمع ليستمر لا إلى مصلحة فرد ليتجبر.

قبل أن ننتهي من المساواة هنالك سؤال مهم :

هل التفرقة بين الذكر والأنثى يدخل في عدم المساواة؟

لماذا ظلم الإسلام الأنثى؟

أين حريتها؟

لماذا لا تعطى الأنثى حقوقها كاملة؟

لنتكلم عن ذلك بالتفصيل في السطور القادمة .

فلسفة الأنثى

في حديثنا عن المساواة تطرقنا إلى قضية الذكر والأنثى، وكانت الأسئلة تتكلم من أن هنالك من يقول بأن الإسلام ظلم الأنثى و بالتالي لم يحقق المساواة هنا.

لماذا نقول بأن هنالك ثمة ظُلم للأنثى؟

للإجابة هنا لنسأل:

ما مفهوم الأنثى؟

الأنثى هي النوع الثاني من البشر والذي يجمعهما نفس الصفات، ويفرق بينهما في بعض تكوينات الأعضاء، وفي التكوين النفسي، والقوة الجسدية، وتشغل حيزًا في المجتمع، ولها من الأهمية ما يجعل المجتمع لا يستقيم بدونها.

قد يكون هذا أقرب وصف، فالبشر نوعين ذكر وأنثى، بل كل الكائنات الحية تنقسم إلى ذكر وأنثى لو استثنينا بعضها كثنائية

الجنس مثل بعض النباتات الزهرية أو عديمة الجنس مثل الطحالب والدرنيات.

لكن لماذا ذكر وأنثى؟

لماذا لا يكون هنالك نوع واحد من البشر؟

هل الله يستطيع على ذلك؟

هل يستطيع سبحانه أن يكون هذا النوع الواحد هو من يقوم بالتناسل؟

بالتأكيد يستطيع الله أن يفعل ذلك ولن يعجزه شيء سبحانه بل توجد كائنات خلقها الله كذلك كما ذكرنا لكنها إرادة الله وحكمته، فلننظر ونتأمل كيف سيكون حال المجتمع لو لم يكن هنالك تقسيم؟ خاصة وأن الإنسان لا يستطيع العيش بعيدًا عن مجتمع؟

كيف ستنقسم الأدوار؟

من سيرضى بدور التربية؟

من سيقوم بالإنفاق؟

بل هل سيكفي البيت أن يكون هنالك فردًا واحدًا يقوم بالعمل والتربية معًا؟

إن الله سبحانه خلق الكون، والأصل في خلقه الإبداع، ومن الإبداع أن يكون الإنسان ذلك الكائن الاجتماعي على نوعين ذكر وأنثى ليستقيم أمر المجتمع.

هذا التقسيم ليس تقسيمًا من أجل التكاثر كما يظن البعض.. لا أبدًا، ولذلك يخطئ العالم من حولنا حينما يتحدث عن المساواة بين الرجل والمرأة وفق ذلك مع أن الإسلام حقق المساواة، لكن قطعًا ليست تلك التي يريدونها.

يخطئون لأنهم يرون أن التقسيم بين ذكر وأنثى هو من أجل التناسل فقط كما ذكرنا، ولم يفهموا، أو تناسوا أبعاد ذلك التقسيم وحكمة الله في خلقه.

إنه تقسيم من أجل أن تسير الحياة وتستمر.

من أجل أن تنقسم الأدوار، ويعرف كل واحد دوره في المجتمع، ولذلك نسأل:

هل هنالك فروقات طبيعية وفيسيولوجية بين الذكر والأنثى غير الفروقات في بعض تركيبة الأعضاء؟

هل يملكون نفس القدرات؟

نفس الامكانات؟

قد يقول قائل نعم هنالك فروقات لكن لديهم نفس القدرات، بل وأن الأنثى قد تكون أحيانًا أكثر ذكاءً من الرجل

جميل، لكن هل الذكاء هنا جعلها في وضع مساوي للرجل؟ ولو كانت أذكى لم لا تكون أعلى؟ والرجل هو من يبحث عن المساواة؟

ثم هل الذكاء هو المقياس؟

هل أزال عنها التغيرات التي قد تصيبها؟

لا يختلف أحد على ذكاء المرأة، بل أن الإسلام استغل ذكائها وجعلها تُستشار في الكثير من الأمور، لكن هنا نتكلم عن التغيرات النفسية والجسدية والتي تغير من وضع المرأة.

لم يقل أحد بتساوي قدرات المرأة الجسدية والنفسية مع الرجل.

من العجيب والطريف أن النساء يعترفن ويؤكدن بأنه توجد فروقات في الجمال لصالح الأنثى عن الذكر أوجدها الله، وأن هذا أمر طبيعي، بل هو اختلاف لا بد منه هنا، ثم في بقية الأمور لا يعترفن بوجود فروقات أوجدها الله بين الذكر والأنثى ويقولون بالتطابق.

إذًا هنالك فروقات نتيجة تلك التغيرات التي تصيب المرأة والتي تحقق التناسل، ومن العدل أن نراعي تلك الفروقات لمصلحة المجتمع، وهذا بالضبط ما تنبه له الإسلام، والمراعاة هنا أدت إلى تحقيق التوزيع العادل للأدوار، فالمرأة قطعًا لن تستطيع جسديًا أن تعمل مثل الرجل فكانت فرصة خروج الرجل للعمل أكبر، وكذلك المرأة تمر بتغيرات نفسية أكبر فكانت إدارة الأرض بيد الرجل، وكل ذلك وفق أنظمة معينة جعلها الإسلام لحماية حقوق المرأة ولا ينفرد بها الرجل.

حسنًا، لماذا هذه الفروقات لصالح الرجل؟

لم لا تكون لصالح المرأة؟

نفس السؤال سيكون لو كانت الفروقات لصالح المرأة، ولذلك القضية ليست في السؤال بقدر ما أن القضية هي في عدم فهم هذه الأمور، أو رفض فهمها بمعنى أدق.

إن عدم فهم هذه الأمور هو الذي أوجد الصراع هنا بين الدين وبين مجموعة يدعون أنهم يطالبون بحقوق المرأة، والمطالبون هنا ليسوا إناثًا فقط، بل هم كذلك من الذكور، ولذلك أطلق عليهم لقب النسويون لانشغالهم بقضاياها، لا لأن تنال حقوقها الشرعية لكن لتحقيق مصالح خاصة، وسنرى ذلك من خلال

السطور القادمة وكيف هم عند مطالبتهم بحقوقها لم يراعوا إلا الجوانب التي يريدونها فقط من المرأة لا ما تستحقه المرأة.

هم نظروا لقضية المرأة نظرة خارجية ولم يتعمقوا في مغزى الدين من تنظيم تلك العلاقة بين الرجل والمرأة، ولنتأمل بعض تلك القضايا:

إن من القضايا المثيرة للجدل عندهم مثلًا هي قضية إدارة الأرض، فلماذا هي بيد الرجل؟

لم لا تدير المرأة؟

لماذا لا نجعل لها على الأقل إدارة نفسها؟

لماذا الولاية والوصاية عليها؟

أليس من الحرية أن تنفرد بقراراتها؟

لنسأل:

هل الولاية إهانة للمرأة؟

ما معنى الإهانة؟

ما مفهومها؟

كيف نحكم على التصرف أنه إهانة؟

لنعلم بأن الإهانة هي قول أو فعل مسيء، لكن أين الإساءة في جعل ولي للمرأة؟

هل هو اتهام بنقصها؟

لماذا لا تكون هنالك ولاية على الذكر؟

هل معنى أن تكون هنالك ولاية على الذكر قبل سن الرشد يعني بأن الذكر في ذلك السن مساوي للمرأة؟

هل وجود الحارس الشخصي لشخصية اعتبارية في المجتمع إهانة له؟

هل ذلك حماية له؟

نعم بالضبط إن الولاية والوصاية على المرأة ليس إهانة بل هي حماية، لكن هل المرأة بحاجة إلى حماية؟

بالتأكيد نعم، والحماية هنا لأنها مختلفة عن الرجل فكان الحرص على المحافظة عليها، والمحافظة هنا اعترافًا بأهمية بقائها لتقوم بدورها.

ولذلك الولاية لا تعني السيطرة على قراراتها أو التأثير عليها، بل الولاية هي حماية لحرية قراراتها من أن تتأثر بمؤثر يؤثر عليها ويستغل ضعفها، وكذلك حماية لقرارتها بأن تنفذ دون

تعكير، والمُؤثر هنا هو من يريد استغلال ضعف الأنثى، والضعف هنا ليس تقليلًا منها لكن بسبب طبيعة تكوينها.

إن المجتمعات الغربية والديانات الباطلة والمحرفة أعطت للمرأة حرية ومساواة مع الرجل لكنها حرية ومساواة ظالمة.

نعم، ولذلك نسأل:

هل من الحرية والمساواة أن نتركها بضعفها تواجه الرجل في هذه الحياة؟

هل من الحرية أن تسافر لوحدها وتقطع المسافات والمحرم هنا هو حماية لها من أن تتعرض لضرر وهي أنثى وحيدة في مكان ليس معها أحد؟

هل نتركها تزاحم الرجال للحصول على وظيفة أو راتب تقتات منه لتبقى على هذه الحياة؟

هل من الحرية والمساواة أن تكون سلعة بين الرجال؟

هل من الحرية و المساواة ألا نقدر ما يصيبها من تغيرات ؟

هل تمتلك المرأة نفس قدرات الرجل النفسية والجسمانية لتكون له ندًا في هذه الحياة ؟

هل عندما نرميها في الشارع مثل الرجال عندما لا تدفع قيمة السكن وهي امرأة ضعيفة أننا بذلك نحقق لها الحرية؟

لماذا هم أنفسهم في ميادين الحياة وفي المجالات التي يطالبون بخروج المرأة فيها لا يساون بين الرجل وبين المرأة فيها؟

لماذا وهم الذين يطالبون بخروجها لتلعب كرة القدم لا يجعلونها تلعبها مع الرجال؟

لما لا يكون هنالك نفس الحساب لعدد المباريات الدولية لكل منهما، بعيدًا عن معادلات الحساب المختلقة؟

أليس ذلك اعترافًا منهم بوجود فروقات؟

وقس على ذلك في مجالات أخرى.

إذًا أين المساواة التي يطالبون بها؟

لنعلم أنه لن تتحقق مساواة بعيدًا عن العدل، وأن الإسلام هو فقط من نظر للأنثى من زاوية العدل، ومن زاوية النظر إلى قدراتها وقدرات الطرف الآخر في المجتمع، وهو الذكر، فنالت معه كل حقوقها، ووصلت لأعلى مكانة تصل إليها المرأة على الأرض.

إننا لو قسنا الأمر بنفس المقياس الذي يقيسون به لكان المحافظة على المرأة هو ظلم للرجل.

نعم هو كذلك، لأننا حينها سنكون منحنا الرجل فرصة لاستغلال ضعف المرأة، فيفعل بها ما يشاء، لكنها عدالة الإسلام ورحمته بالمرأة، فحافظ عليها وارتقى بها وأكرمها ورفع من شأنها، وكذلك بالرجل بأن حماه من فرصة يستغل من خلالها المرأة.

كيف يقولون بأن الإسلام يهين الأنثى ونحن نعلم بأن من يهين شخصًا لا يستشيره؛ والمرأة لها حق الشورى في الإسلام، بل وكانت لها كلمة الفصل في الكثير من الأمور.

من يهين شخصًا لا يُطالب الرجل بأن يعدل من أجله.

من يهين شخصًا لا يُطالب الرجل الذي له القوامة باتقاء الله فيمن يعول، بل وحتى وهو يعاقب زوجته إن تجنت يضع ضوابط لذلك تقديرًا لها، ومحافظةً عليها ومراعاة لنفسيتها.

من يهين شخصًا لا يخوض حربًا من أجله كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم مع بني قينقاع والقصة مذكورة في التاريخ الإسلامي، وكما فعل المعتصم مع المرأة التي صرخت: وا معتصماه.

من يهين شخصًا لا يضع لأجله حقوقًا كثيرة يلزم بها الرجل وإلا عُوقب .

من يهين شخصًا يحرمه من حقوقه المالية، والأنثى في الإسلام لها حق النفقة والإرث، بل والإرث هنا والذي يقولون بأن الأنثى ظُلمت فيه ولم تتساوى بالذكر نجد بأن الأنثى لم تأخذ حقها في نظام أو مجتمع أو ديانة مثل ما أخذته في الإسلام، ولذلك نقول لهم هنا عذرًا؛ هل قرأتم في أحكام الفرائض في الإسلام، أم أن اطلاعكم كان رؤوس أقلام؟

فعلًا، هذه مشكلة

إنه لمن الظلم أن نحكم على شيء دون أن نتعرف عليه.

دون أن نقرأ عنه.

دون أن نبحث في مسائله.

إن اطلاعكم على الإسلام هو رؤوس أقلام أخذتموها ثم جادلتم حولها وهذا ليس من العدل، والعدل هنا هو الذي تبحثون عنه إن كنتم صادقين.

إن الإسلام عندما يعطي الذكر مثل حظ الأنثيين في بعض الحالات فذلك لدور كل منها في الحياة، فالذكر مطالب بالإنفاق

والقيام على شؤون من يعول عكس الأنثى، و هنا كانت الزيادة للذكر والله أعلم، وإن الزيادة هنا كانت في حالات محددة فقط؛ ومع ذلك كان للأنثى نصيب من الإرث، بل يجب على الذكر بحكم واجباته الأسرية أن ينفق على الأنثى هنا مما اكتسبه من الإرث، في مقابل لا تنفق الأنثى على الذكر مما اكتسبته.

هل تعلمون كذلك بأن الأنثى في الإرث قد تأخذ في حالات معينة أكثر من الذكر؟ بل أن الحالات التي تحصل فيها على نصيب أكبر أكثر من عدد الحالات التي يحصل فيها الرجل على نصيب أكبر.

ماذا لو كانت المساواة في الإرث هل سيكون ظلم لها لو حصل الرجل مثلها في تلك الحالات ؟

كيف يطالبون بالمساواة ويقولون بأن الرجل فقط هو من يحدد مستقبل الأسرة؟ وأن قرار إنهاء الحياة الزوجية بيده فقط حتى لو عانت المرأة من جبروته؟ هل هذا الكلام يقوله الإسلام ؟

من أين جئتم به؟

من قال لكم ذلك؟

أليس من حق المرأة في الإسلام أن تطالب بالخلع عند حصول الضرر؟ بل و يتكفل زوجها بكل الأضرار؟

إن إدارة الأرض بيد الرجل وهذا صحيح، فعندما نظم الإسلام المجتمع جعل قرار إدارة الأمور بيد الرجل ولم يكن ذلك انتصارًا له لكن لأن الله خلق المرأة وفق تكوين معين، فالمرأة تمر بمؤثرات معينة كالدورة الشهرية، والحمل، والوضع فيتقلب مزاجها، وحينها هل قرار إدارة قضايا الناس مناسب لها؟

لو غابت المرأة عن القيادة تحت أي ظرف من هذه الظروف، أو كان قرارها عاطفيًا ناتجًا تحت مؤثر من هذه المؤثرات فإن العالم سيعود إلى الفوضى بالتأكيد، ولذلك إدارة الأرض أو لنقل المناصب السياسية أو غيرها بحاجة إلى قوة وإلى استمرارية، والقوة يملكها الرجل وهذا معلوم، والمرأة هنا قد تغيب أو تتأثر قوتها كما ذكرنا بتغيراتها الجسدية والنفسية، و غيابها هنا يضر باستمراريتها في إدارة الأرض فكان لا بد من الرجل، لكن لا يعني ذلك بخروجها من الكثير من القرارات الهامة سياسيًا فهي قد تستشار.

نعم فهي قد تكون ملمة بأمور لا يعرفها الرجال، خاصة لو كانت تلك الأمور تخص قضايا المرأة

أما بالنسبة لمن يقول بأن القرارات الشخصية للأنثى بيد غيرها فذلك غير صحيح؛ بل هي بيدها كما ذكرنا في الأمثلة السابقة، وأن الولاية هي فقط حماية لحرية قرارات الأنثى من أن تتأثر بمؤثر يؤثر عليها ويستغل ضعفها كما ذكرنا، وكذلك حماية تلك القرارات بأن تنفذ دون تعكير، ولذلك لو كان هنالك تدخلًا كما يقولونه في بعض شؤونها فذلك بسبب عدم قراءة حقوقها في الإسلام؛ أو أبعاد ذلك على الحياة من قِبل من يتكلم عن ذلك، حيث أن قرار الطلاق مثلًا، والذي ذكرناه كمثال هنا قلنا بأنه بيد الرجل، وأن للمرأة طلب ذلك للحصول عليه متى أرادت، وهنا قمة العدل، حيث أن قرار الطلاق مثلًا هو من القرارات التي لا تؤثر على المرأة فقط بل على أسرة أو مجتمع، وبالتالي تأثيره ليس فرديًا عليها، وبالتالي هو قرار بيد من يقود الأسرة والمرأة كفرد في الأسرة تطلبه لتحصل عليه لا أن تقرره بدايةً، فالقيادة ليست بيدها، وهكذا تدار المنظومات في الإسلام وفق ضوابط لحفظ حقوق الجميع، ولذلك فالمسألة هنا هي مسألة

تنظيمية وليست حرمان من حق كما يدعي من يرى أن المرأة مضطهدة في الإسلام، ولذلك سأسأل:

هل المرأة تُجبر على الزواج مثلًا؟

تُجبر على أي أمر ينفعها؟

تُجبر على فعل شيء يضرها؟

قس على ذلك في كل قضايا المرأة التي يتكلمون عنها فقرارها بيدها، وهنا قد يأتي سؤال آخر:

كيف تقولون أن الأنثى تأخذ حقوقها ولا تُظلم وأنتم تجعلون عدة على المرأة عند وفاة زوجها أو طلاقها، والرجل ليس عليه ذلك؟

حسنًا، هل تعلمون بأن الإسلام عندما جعل للمرأة عدة عند وفاة زوجها، أو عند طلاقها ليس ذلك بسبب التفرقة العنصرية بين الرجل والمرأة؟

هل تعلمون أنه فعل ذلك مراعاة للحالة النفسية للمرأة من جهة، وبراءة لرحمها من جهة أخرى، وهذه بالذات تدل على عبقرية الإسلام وأنه دين الخالق الذي خلق البشر ويعلم بتكوينهم الجسدي وبالتالي فهو يراعي كل شيء ويحفظ النسل.

إن هنالك من يقول بأن العدة عندما تكون على المرأة دون الرجل لهو من الظلم، وقد بينا سبب ذلك عندما ذكرنا حفظ النسل، والرجل لن يؤثر عليه حفظ النسل، بالإضافة إلى أن الرجل له حق التعدد فلا يضره عدم الانتظار هنا، لكن ليس ذلك في كل أحواله، ولذلك مثلًا لو طلق الرابعة طلاقًا رجعيًا لا يتزوج حتى تنتهي عدة زوجته التي طلقها، بل وقال بعض العلماء حتى ولو لم يكن الطلاق رجعيًا، وهنالك حالات أخرى، وهنا ألا يعتبر انتظار الرجل وحفظ أوامر دينه احترامًا للمرأة لأنها قد تعود له متى ما رغبت بالعودة أثناء العدة؟

إن الإسلام كذلك راعى الأنثى في كل مراحل حياتها، فللأنثى حق الرعاية والعناية منذ صغرها كطفلة وابنة، وفي شبابها كزوجة وأخت، وفي كبرها كأم وعضو من الأسرة، وعلى ذلك لا يوجد قانون في العالم يكفل للمرأة كل تلك الحقوق، وفي كل مراحل حياتها إلا الإسلام.

نعم، لا يوجد من يحفظ كل هذه الحقوق إلا الإسلام، وبالتالي لن تجد قانونًا في العالم أراح المرأة وأكرمها، فهي في كل قوانين الدنيا مثل الآلة تعمل أو تُلقى في الشارع، ولذلك تضيع في المجتمع بين قوة الرجال وصعوبات الحياة، فلا تملك إلا أن

ترضخ لرغباتهم فتصبح مضطهدة لتبقى على الحياة، فأين هؤلاء النسويين من كل ذلك؟

ولذلك إن كان النسويون يريدون حقًا حقوق المرأة لنسألهم:

لماذا تهتمون بفئة عمرية فقط من الإناث ولا تهتمون بالأنثى بكافة مراحلها العمرية؟ لماذا الشابات فقط؟

أين اهتماماتكم بالأمهات؟ وبكبيرات السن؟ وبالمشردات؟ وبالطفلات اليتيمات؟ وبالفقيرات؟ وبذوات الاحتياجات الخاصة؟ هل تستطيعون الإجابة؟

حتى الشابات لماذا فقط تحرضوهن للتطاول على المبادئ وتخرجوهن من بيوتهن، وبعد أن يقعن وتحققوا ما تريدون منهن تتركوهن يواجهن مصيرهن؟

هل القضية في حصولهن على حقوقهن كما تقولون أم في خروجهن؟

في إفساد المجتمع؟

إن المساواة كما ذكرنا سابقًا هي في إعطاء كل ذي حق حقه فهل فعلتموها أم أن القضية لها أبواب أخرى مغلقة؟

إن المساواة المزيفة التي يطالبون بها ليست من أجل المرأة بل هي من أجل أن يكونوا قريبين منها وقت ما يريدونها لهم.

حتى النساء اللاتي يطالبن بتلك المساواة المزيفة تم خداعهن ولو فكرن قليلًا لعلمن حقيقة ذلك التزييف.

إن المرأة و هي تطالب بحقوقها يجب عليها أن تبحث عن تلك الحقوق في الإسلام.

عن مراد الله الحقيقي الذي خلقها والذي يعرف سبحانه ما يناسبها، وتبحث عن أبعاد ذلك، وعندها ستعرف من كان حريصًا عليها .

من أراد لها الارتقاء ومن يريد أن يستغلها.

عندها ستعرف حقيقة كل شيء وعندها ستكون، فقط بقليل من التبصر والنظر.

هنا مسألة أخرى: هل من فلسفة الأنثى أن تغادر الحياة ؟

لنسأل : ما معنى المغادرة ؟

المغادرة هي الخروج والغياب بعد تواجد، ولذلك هل غادرت الأنثى ميادين الحياة حقًا؟

قد يقول قائل : نعم، فأين هي من ميادين العمل والأسواق؟

لنعلم هنا بأن الكثير من الأمور يسوقها الذين يريدون خروج المرأة بطريقة مريبة وخاطئة فقط من أجل دعم ما يريدون وهذا ما حدث هنا.

إنه يجب علينا دائمًا التثبت من ما يقولونه دعاة خروج المرأة أو النسويون، فهم دائمًا يُلبسون على الناس، وهذه طريقة ضعيف الحجة دائمَا.

قد يقول قائل بأن خديجة رضي الله عنها مارست التجارة في مكة ولم ينكر عليها أحد ذلك.

صحيح ما حدث مع خديجة رضي الله عنها، لكنها رغم تجارتها لم تخرج وتسافر، بل استأجرت من الرجال من يقوم بذلك لأنها امرأة، فكانت تكلف من ترى فيه الأمانة بذلك، مع العلم أنها كانت تفعل ذلك قبل الإسلام، وهذا يدل على أن عدم خروج المرأة وعدم اختلاطها بالرجال ليس الإسلام فقط من قال به، بل كل فكر سوي يقول ذلك.

إن للمرأة حق ممارسة الحياة، والخروج لتمارس مهامها ووظائفها لكن بضوابط؛ وأهم هذه الضوابط أن تكون بعيدة عن

الرجال، أو في مهام لا تقوم بها إلا المرأة، كتعليم البنات، وعلاج النساء، وغير ذلك، وهنا قد يأتي السؤال:

لماذا النظرة دائمًا بين الرجل والمرأة نظرة جنسية، وبالتالي لا بد من الفصل بينهما؟

لماذا الإسلام يسيء الظن هنا؟

لماذا نفرق بينهما طالما أنها اضطرت للخروج؟

لنعلم هنا بأن النظرة الأولى ليس شرطًا أن تكون نظرة جنسية بينهما، فقد تكون بعد فترة، و هذا أمر طبيعي، لكن لماذا ننتظر إلى أن تتغير النظرة وتصبح كذلك؟

ليس معنى ذلك بأننا نأتي بسوء الظن.. لا، بل ذلك حماية للمرأة، فلو تطور الأمر للأسوء من يحمي المرأة الضعيفة هنا؟

إن الحماية هنا ليست حماية للمرأة فقط بل هي كذلك حماية لحريتها.

إن الحجاب كذلك هو حماية للمرأة و ليس حرمان لها من الحياة فالمرأة تستطيع أن تخرج لكل مكان متمعة بحرية في سترها دون مراقبة أعين الناس لها، ودون أن يمنعها الحجاب من أداء

ما تريد، لكنه بالتأكيد يمنع النسويين أو دعاة تحرير المرأة من الوصول إلى ما يريدون ولذلك لنسأل:

هل أضر الحجاب بها؟

هل أضر بمن حولها؟

هل الحجاب يعني التخلف؟

بالتأكيد لا، فلماذا التجني على الإسلام؟

لماذا دائمًا نذهب للمعارض والمتاحف و نعجب بلباس بعض الحضارات ونلتقط لها الصور مع العلم بأنه لباس كامل وساتر، أو أنه قد يحتوى على كثير من الأقمشة في لباس واحد ولا نقول بأن ذلك كان تخلفًا، ثم نحكم على الإسلام بالتخلف والذي هو قطعة واحدة أو قطعتين؟

ولذلك هم يرون أن هنالك ظلمًا للأنثى لأنهم لم يعرفوا حقيقة تكوين الأنثى والفروقات الفيسيولوجية بين الذكر والأنثى، وعدم دراسة تكوين كل منهما، والهدف من ذلك، أو تجاهلوا معرفة ذلك، ولذلك لن يعرفوا مكانها الحقيقي في المجتمع وفاقد الشيء لن يعطيه.

الفصل الخامس

هل من الممكن لقوانين البشر أن تخدم العالم؟

في هذا العالم وفي خضم تمرد الإنسان على الخالق أراد ذلك الإنسان وبما يملكه من عقل، وبما أنه أذكى المخلوقات على الأرض بأن يدير هذا الكون بقوانينه هو، ولذلك سن قوانين ووضعها لإدارته بحسب ما يرى.

بدايةً ما هو القانون؟

القانون هو مجموعة من الأنظمة تفرضها منظومة ما، أو مجموعة من البشر لتنظيم حياة كل البشر الذين يقعون تحت دائرتهم.

وهنا القانون بحاجة إلى قوة ليستمر، والقوة يستمدها ممن يحمي القانون.

حسنًا، لكن من يحمي القانون؟

هل هنالك من هم فوق القانون؟

لماذا القانون بحاجة دائمًا إلى تغيير؟

الذي يحمي القانون هو من يقوم بإدارته، والذي يقوم بإدارته بحسب القانون يخضع للقانون، فلا يوجد أحد فوق القانون، لكن ماذا لو تمرد من يقوم بإدارة القانون على القانون؟

ماذا لو تدخل لسن قوانين تقوي إدارته للقانون؟

صحيح أن سلطة القانون قد تكون أقوى في حماية القانون من التمرد، لكن لا بد من أن يستغل ثغرات ذلك القانون لخدمة إدارته للقانون بحجة تغيير أو تطوير القانون، خاصة لو كان الهدف هنا هو حماية نفسه من عقوبات سيفرضها القانون عليه فيما لو سارت الأمور على ما هي عليه.

هل يعتبر استغلال ثغرات القانون ذكاءً ممن استغل هذه الثغرات، أم هو ضعف في القانون؟

بالتأكيد ضعف في القانون، ولذلك فالقانون البشري بحاجة إلى تحديث مستمر لمعالجة تلك الثغرات ولمواكبة المتغيرات، والمتغيرات هنا سببها أن إدراك القانون للكون ليس كاملًا،

فالعالم مليء بالأسرار، ولا يمكن للبشر الإلمام الكامل بها، ولذلك لا بد من استكشافها، والاستكشاف بالتأكيد بحاجة إلى الوقت، والانتظار لن يجدي، فكان لا بد من وضع قانونًا ناقصًا بما هو معلوم، ومن ثم تغييره بما يستجد.

نعم، قانونًا ناقصًا، لأن القانون الكامل بالتأكيد غير قابل للتعديل، بل هو لا يحتاج إلى تعديل أصلًا، لكن مهلًا!

أليس في ذلك ظلم؟

ظلم لمن طُبق عليه القانون فكان ضده، ثم بعد ذلك تم تغيير ذلك القانون بما هو مناسب والذي لو طُبق من قبل لما كان سيئًا على ذلك الشخص؟

إن كل قوانين البشر يعتريها من النقص والإجحاف ما يعتريها، ولن يجدي إلا قانون الصانع الحقيقي للكون، فهو الأدرى بما يناسب، وهو غير قابل للتعديل، ولذلك من ظلم الأرض أن نطبق عليها قانونًا لا يناسبها.

أن نجعلها تُحكم بغير قانون الله.

ألا نجعل الأرض خاضعة لله بحكم الله.

إن ذلك ليس ظلمًا للأرض فحسب بل لكل من يقيم على هذه الأرض من مسلمين وغير مسلمين.

إن ذلك ظلم لأننا نحرم البشرية من أن يعيشوا في ظل قانون يناسب فطرتهم الحقيقية.

من أن يعيشوا في ظل قانون يحميهم.

من إن يعيشوا تحت حكم الله في أرض الله، بعدالة اجتماعية راقية، لا عبودية إنسان وإن لم يسجدوا له.

إن كل قانون وضعي ما كان ليكون لولا تسلط فئة من البشر على البشر ليسودوا الدنيا، ويُخضعوا الناس تحت نظامهم، لا نظام الله.

قد يقول قائل أن الإسلام نفسه بلسان النبي صلى الله عليه و سلم قال : (أنتم أعلم بأمور دنياكم)[1]، بمعنى أنه ترك للإنسان وضع قوانينه الخاصة.

للإجابة على ذلك لا بد أن نعلم بدايةً بأننا دائمًا لطالما تكلمنا عن إبداع الخالق في الكون، وكيف أنه سبحانه وضع نظامًا دقيقًا،

[1] رواه مسلم .

ورائعًا لتسييره، فلماذا لا نقر لذلك الصانع المبدع الذي صنع الأرض وأبدعها بأن ينظم حياتنا فوق الأرض دام أننا لمسنا عظمته من حولنا وتأكدت لنا؟

صدقوني بأن أكثر المشكلات والتي تعانيها المجتمعات وهي سائرة نحو التطور لن تحل إلا وفق قانون الإسلام، ولو تأملنا في أعظمها أهمية لدى الناس وهي المشكلات الاقتصادية مثلًا لعلمنا بأن الإسلام قد حلها منذ قرون.

قد تقولون بأن الله سبحانه أوجد هذه المشكلة يوم أن قسم البشر بين غني وفقير، وأن الفقير يعاني لأنه وُجد كذلك، لكن لو تأملنا في حقيقة الأمر لوجدنا أن نظام الزكاة الإسلامي والذي يشبه دورة الغذاء في الحياة، قد حل هذه المشكلة، فهو من جهة زكى مال الغني وطهره وأشعره بمن حوله وعوضه عن ذلك، فلم يأخذ مال الغني بلا مقابل، وقد تحدثنا عن ذلك، ومن جهة أخرى أمن عيشة الفقير، وضمن له غذاءه الذي هو موجود أصلًا عند الغني، والذي لن يخرجه منه إلا فريضة الزكاة الإسلامية، أو الصدقة، بالإضافة إلى حق كل فرد من ثروات بيت مال المسلمين، وبالتالي تكون قد حلت أعظم مشكلة تؤرق

المجتمع، ولعاش الناس إن طبقوا ذلك في رغد عيش، وأمان منشود، ولنقس على ذلك كافة أمور الحياة الأخرى وهذا كمثال.

و هنا نذكر بما ذكرناه سابقًا من أن ما يقع من مشكلات على هذه الأرض ليست بسبب واقع الحياة، لكنها بسبب ظلم من يدير الأمور على الأرض، وتسلطه، ولو قام كل من تولى أمر البشر بدوره لما حدثت تلك المشكلات سواءً اقتصادية أو غيرها.

ثم إن حديث (أنتم أعلم بأمور دنياكم) ذُكر في الزرع وأحكامه، لأن النبي ﷺ رجل قرشي من مكة لم يعمل بالزراعة فترك لهم ذلك الأمر من تلقيح وحصاد لأنهم يعرفون مهنتهم، لكن ذلك لن يكون بالخروج عن حدود الشرع بالتأكيد، فلن يتم الحصاد مثلًا بمخالفات شرعية، لأن الأمر ليس كما تعتقد من ترك الأمر للناس كما يريدون، وكذلك في سائر الأمور، بل أن ذلك يدل أصلًا على مرونة القانون الإسلامي الذي ترك للناس بعض التفاصيل لكن دون الخروج عن دائرة قانونه.

لنعلم بأن قانون البشر لن ينجح في ظل صناعة كون كامل من الابداع، ولذلك لن تكون الإدارة إلا لقانون الخالق الكامل في الابداع، وطالما أوجد الصانع قانونًا فلم نستبدله بأدنى؟

لماذا نستمر على تلك القوانين ونحن نرى أنها لم تخدم البشر؟

نرى أننا فئران تجارب تُطبق علينا ثم تُغَير عندما تفشل التجربة لتكون مكانها تجربة أخرى، أو قانونًا آخرًا؟ مالكم كيف تحكمون؟

هل من العدل أن نطالب بإلغاء حكم القصاص الشرعي والذي فيه عظة وتخويف لمن يتجرأ على نفس ليقتلها، فنحفظ بذلك حياة الكثير من الناس ابتداءً، بقانون وضعي يرى أننا نسجن القاتل فقط فنشجع آخرين على القتل؟

هل من العدل أن نستبدل القصاص بالسجن مدى الحياة لقاتل؟

هل السجن هنا سيجعل له فائدة؟

مالفائدة من أن نجعل القاتل يعيش بقية عمره مركونًا على هامش الحياة؟

هل من العدل أن يأتي دين باطل ليحكم بانتهاء حياة امرأة مات عنها زوجها؟

لماذا نترك كل ذلك ونأتي للإسلام ونقول بأنه ظلم المرأة في أمر العدة عندما يتوفى عنها زوجها، والذي لو نظرنا فيه لوجدناه خيرًا من ناحية براءة الرحم، وحفظ النسل، بالإضافة لبعض الجوانب النفسية؟

إن كل ذلك يدل على أن القضية ليست النظر لما هو أفضل، بل هي حرب صريحة على الإسلام، ومؤامرة وكل شيء حولنا يدل على أنها كذلك، ومن يرى بأنها ليست مؤامرة فهو ساذج لا محالة.

إنها مؤامرة، ولا بد للإسلام من مواجهة هذه المؤامرة.

إن من عجز عن تحقيق عدالة قضائية في القضاء بالتأكيد لن يستطيع تحقيق عدالة اجتماعية في كافة جوانب الحياة.

لماذا يريد الدين أن يقود العالم؟

ليبقى الأقوى، وهذا بالتأكيد هو حلم كل منظومة أن تكون في القمة لتبقى الأقوى، لكن السؤال لماذا تريد أن تبقى الأقوى؟

ليست العبرة بأنك تريد أن تصبح الأقوى، لكن لماذا تريد أن تصبح كذلك؟

هل من أجل أن تسيطر؟

لماذا تريد السيطرة؟

من هي الفئة المستهدفة؟

كل البشر؟

ما هو المكان المستهدف؟

الأرض؟

كل الأرض؟

لو كان الأمر كذلك فليست هي قيادة.

ليست إدارة بل هي حاكمية للكون.

هي إرادة أن تحكم العالم.

إن الكثير من دول العالم أرادت أن تحكم العالم فأقامت المستعمرات في دول العالم الثالث، وحاربت بعضها بعضًا، لكنها في النهاية اتفقت على وضع حدود بين الدول.

حدود فيما بينها، وكذلك بين مناطق العالم الثالث، لأنها رأت أن الاستعمار لن يجدي.

صحيح أنهم لم يخرجوا من دول العالم الثالث، وإن خرجوا شكليًا من الدول التي استعمروها لأنهم رأوا أنه من الصعب على دولة ما أن تقود بشكل كامل جزءًا كبيرًا من العالم، ولم أقل كل العالم، فالقوة لم تمكنهم من فعل ذلك، والقوة هنا الاقتصادية والعسكرية.

إنهم تعرضوا لخسائر جعلتهم يخرجون ليس من دول الشرق الأوسط فحسب، بل حتى من دول الشرق الأقصى وإفريقيا.

جعلتهم يخرجون، وإن عادوا بثوب آخر.

إنها مهمة مستحيلة لأنهم ما استطاعوا أن يستعمروا كل العقول هناك، وإن استعمروا الأرض، فكان النضال الذي أخرجهم.

لكن لماذا الإسلام يريد أن يقود العالم؟

ألا يعتبر من أن غيره لم ينجح؟

إن أي قوة في العالم لم تستطع أن تسيطر على العالم لأنها باختصار لم تستطع أن تسيطر على العقول.

على روح الإنسان، لأن الإنسان مرتبط بحب أرضه، وبعقيدته، وهو ما دفعه لرفض الاستعمار، فما كان من المستعمر إلا أن عاد إليه بثوب آخر كما ذكرنا.

إن الدين هو العقيدة التي تستطيع أن تحكم وتدخل إلى عقول الناس وقلوبهم أكثر من أي شيء آخر كان وطنيًا أو قبليًا، خاصة لو كان هذا الدين هو دين الفطرة ودين الصانع الحقيقي للكون، وبما أن كل دين باطل، ودين الصانع هو الإسلام، فإن العالم ينظر إليه على أنه الخطر الذي لا بد من محاربته حتى لا يسود، لكن ماذا عن الإسلام؟

إن الله عز وجل خلق الكون وأوجد الدين وأرسل الرسل، كل رسول إلى قومه، ثم ختم بالنبي محمد ﷺ ليكون رسولًا لكل العالم، وأنزل عليه شريعةً ومنهاجًا لا ليعلم بها من دخل إلى

الإسلام تفاصيل هذا الدين فحسب بل ليكون دستورًا يحكم به كل الوجود.

ليكون الدين كله لله، وبعد ذلك من أراد أن يسلم فله ذلك، ومن أراد غير ذلك فله ما يريد، لكن الأهم أن يكون كل الكون خاضعًا لله، فلا يؤثر أحد على أحد، أو يمنع الناس بعضهم البعض من اتباع الحق، ولا كذلك يضعف أحد من الثبات على طريق الحق.

يريد الإسلام أن يكون كل الكون خاضعًا لله وبحكم الله لا من أجل التسلط، ولا لفرض القوة، بل لتزول كل المؤثرات التي تشوش على الناس في عقيدتهم، وإن حكم الله المقصود به هنا هو حكم الله الحقيقي، لا مثل الذي يدعي بعض ممن يدعي انتسابه إلى الإسلام تطبيقه.

يريد الإسلام ذلك حتى يزيل عبودية الناس للناس وتفتح مساحات من الحرية والأمان الروحي الفطري لهم.

يريد الإسلام ذلك حتى ينعم الجميع بعدالة اجتماعية راقية تشعرهم بإنسانيتهم، ولا تجعل العالم بيد نخبة معينة، ولذلك فحاكمية الإسلام للكون ليست من أجل الإسلام والمسلمين بل من أجل البشرية جمعاء.

نعم هي من أجل كل البشر لأن الإسلام كما ذكرنا هو من سيشعر البشر بإنسانيتهم دون كل تلك الأنظمة، وإن ذلك لهو دليل دامغ لكل من يقول بأن الدين إذا دخل في السياسة فإن ذلك سَيُنتج استبدادًا لا محالة.

نعم إن ذلك هراء.

هو هراء بالتأكيد، ولو كان استبدادًا لما قامت حضارة حقيقية بعدالة اجتماعية راقية.

لو كان استبدادًا لما جاء بمبدأ الشورى في الاختيار، ولا بمبدأ الإنكار عند الطغيان، نعم.

إن الاستبداد يكون عندما تكون للنخبة السلطة المطلقة.

عندما تكون لها الدساتير فتغير بها متى تشاء، وكيفما تشاء، وبما يخدم مصالحها الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية، ولا مبالاة لباقي البشر وإن ماتوا جوعًا أو حرموا من حياتهم وأبسط حقوقهم.

يكون الاستبداد عندما يرفضون دستور الله الذي ينظم العلاقة بين الجميع بعدالة ويضبطها ليظهر أثرها على الأرض، وينظم للناس حياتهم.

إن ما نشاهده اليوم من تأثر بعض المسلمين بعقيدة غيرهم لهو بسبب تلك المؤثرات التي ما كانت لتكون لولا غياب حاكمية الإسلام على الكون .

إنهم يطالبون بإسلام لا يقود الأرض.

يريدونه إسلامًا في المساجد فقط، لا يخرج منها، ولتُترك الحياة لآخرين يقودوا الأرض، وهذا من الصعب أن يتحقق.

من الصعب أن يتحقق لأن الإسلام عندما تكون فوقه سلطة دنيوية لا بد لها من أن تقيده لأنها لا تريد أن تصطدم معه في ميادين الحياة فتسيره كيفما تشاء، ولذلك فهي لا تريده إلا داخل المعبد، وهذا ما فعلته أوروبا مع النصارى فكان أن قيدت الدين في المعبد فكان ما كان من السقوط، هذا ورغم أن دينهم باطل، فكيف بالإسلام الدين الحق الذي أراده الله أن يكون.

إن المسلمين ينبغي لهم أن ينتبهوا لذلك و يسعوا إلى نشر دين الله في كل الأرض حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، وحتى تستنير الأرض بنور الله ولا يرضون بغير ذلك، وكيف لهم أن يرضوا، فليس ذلك خيارًا لهم، لأنها سنة الله في الأرض، فلا يظلموا أنفسهم بترك ذلك، ولا يظلموا غيرهم بحرمانهم من العيش في ظل ذلك.

إن الدولة الإسلامية هي الوحيدة عبر التاريخ التي لم يخرج عليها الناس يومًا مطالبين باستقلاليتهم عنها وإن لم يدخل بعض رعاياها الإسلام، لأنهم وجدوا الأمان، ووجدوا إنسانيتهم، وإن دول الخلافات الإسلامية لم تسقط إلا بضعف أصابها يوم أبتعدت عن دينها فتمكن منها الأعداء، ولن تعود لها قوتها إلا بعودتها إلى دينها، وإقامة حكم الله ليسود عدل شريعته.

فلسفة الجهاد

قبل أن نتكلم في فلسفة الجهاد لنجب على السؤال التالي :

لماذا البطش دون السلمية؟

إن إجابة هذا السؤال والكثير من الأسئلة في هذا الجانب لن تُفهم طالما أن العقول تشربت بوجهات النظر الزائفة، والمساواة المزعومة، والحرية المزيفة، والتعايش الكاذب، وعدم فهم حقيقة الكون، ومراد الله، واستشعار ذلك.

نعم، إنها ليست قضية إبداء رأي، بل هي في غياب استشعار لمراد الله، وغياب استشعار رحمته سبحانه بخلقه، وعدم معرفة المراد من حاكمية الله على هذا الكون.

هي في غياب استشعار أهمية أن يكون الدين كله لله.

إن القضية ليست في المفهوم الخاطئ للجهاد لدى العالم الغربي أو حتى لدى بعض المسلمين الخائفين من اتهامات الغرب لهم

بالعنف، أو كذلك من بعض المتأسلمين، بل إن القضية هي في غياب معرفة حقيقة الكون والأمور التي ذكرناها.

إنه تغييب تم رسمه بدقة حتى يتم تشويه صورة الجهاد، لا لأجل الجهاد والقتال لكن للحد من انتشار الإسلام.

إن الجهاد ما وضع إلا لنشر الدين وليكون الدين والحكم كله لله، وإقامة عدالة اجتماعية ليس من أجل الدين بل من أجل الإنسان، وليس من أجل القتل نفسه وحب سفك الدماء أو عشق السلطة.. لا، فالأمر ليس كذلك، ولا كما يدعي أعداء الإسلام، ولذلك سنجد خلال الأسطر القادمة كيف أن القتال ليس أول الحلول التي و ضعها الإسلام لنشر الدين.

قد يقول قائل أن ذلك جميل، ومن حق الصانع طالما أنه أوجد الكون أن يفرض دينه الذي أراده للناس كما يريد، لكن لماذا بالقوة؟

لماذا يستخدم الإسلام القوة أصلًا حتى ولو كانت كآخر الحلول كما يدعي؟

لماذا لا يكون ذلك بالحوار؟

لماذا لا نؤمن بحوار الأديان؟

قبل أن نجيب لنسأل :

ما المراد بالحوار؟

هل تقصد أن أتحاور معك ثم أعود إلى منزلي وتعود أنت إلى منزلك، ولو لم نتفق؟

لو عدنا إلى منازلنا ماذا يفعل العالم؟

هل يستمر في ضلالاته؟

لماذا لا نستبدل حوار الأديان بالمناظرات؟

لماذا لا يريدون مناظرات؟

أتعلمون لماذا؟

لأن المناظرات يظهر فيها الحق من الباطل، وهذا ما لا تريده الديانات الأخرى لأنها أديان باطلة.

ثم لو تركنا كل ذلك بحجة تحقيق الهدوء وعدم الصراع كما يقولون؛ فإن ذلك الهدوء سيسهل للباطل بأن ينتفش وينتشر؛ وبالتالي يُزين ذلك الباطل لكثير من الناس، ويُغريهم بالانتماء إليه، لأنه لا يوجد من ينكر عليهم ذلك الباطل، أو يظنون أن سكوت الإسلام إقرارًا للباطل فيُخدعون به، وعندها سيكون ذلك

ليس ظلمًا لهم فحسب، بل هو ظلم للأرض التي لا بد بأن تستنير بنور الحق، والحق ليس له إلا طريقًا واحدًا.

ماذا تفعل لو وجدت إنساناً يغرق أمامك؟

هل تتركه؟

هل تنتظر لتسأله عن إذا كان يريدك أن تنقذه أم لا؟

هل من حسن الخلق أن أرى غيري في النار بسبب باطله، وأتركه طالما أنني أملك سر النجاة؟

طالما أنني أملك الدين الحق؟

أليس من الأجدر أن أنقذه ثم مستقبلًا، أضع حاجزًا حتى لا يغرق مرة أخرى هو أو غيره؟

إن الإسلام ليس دوره فقط في إنقاذ الغرقى من بحر الباطل بل كذلك لا بد له من حمايتهم حتى لا يغرقوا مرة أخرى هم أو غيرهم، ولذلك لا بد له من أن يسود ليستطيع أن يوفر البيئة التي تمكن الناس من الاختيار بلا مؤثرات.

إن مبدأ القوة التي يستخدمها الإسلام هو نفسه مبدأ القوة التي يستخدمه الغرب للسيطرة على ما يريد، لكن الفرق هو أن الغرب يستخدم القوة بأهداف إجرامية تدميرية للاستعباد لا

قتالية تحريرية لحماية البشر وليست لها مقدمات لتجنبها إن أمكن مثل المسلمين، ولذلك لا مقارنة أبدًا بين إجرام الغرب وآداب الجهاد في الإسلام، ورغم ذلك يبرر الغرب ما يفعله بحجة أن الحروب لا بد لها من أبرياء، وإن ذلك من طبيعة القتال، وهذا يثبت بأنهم يرفضون الجهاد لا لما يفعله من ينتمي للجهاد وإن كان ما يفعلونه في جهادهم ليس كما يروج له الغرب، وسنرى ذلك من خلال الأسطر القادمة، لكنهم يرفضون الجهاد ويتهمونه بالاتهامات الباطلة لأنه ينشر الإسلام في الأرض، ويقيم حاكمية الله على الكون، ويقضي على باطلهم فكان ما كان من حربهم على الإسلام.

باختصار.. لا يوجد في الإسلام ما يثير الخوف أصلًا، أو نخجل من الكلام عنه، وهذا الإرهاب بالذات الذي يتهمون به المسلمين لنعرف معناه.

لنعرف مفهومه.

لنعرف مقياسهم الذي قاسوا به جهاد المسلمين.

إن الإرهاب بمعناه الصحيح هو التخويف، والتخويف قد يكون من أجل الخير وقد يكون من أجل الشر، إما مفهوم الإرهاب

عند الغرب فهو أداء أعمال العنف ضد شخص مسالم أو أكثر بقصد التخويف لتحقيق هدف.

أو هو تخطيط متعمد لاستهداف غير المقاتلين.

إنه وعلى مر التاريخ نجد أن الإرهاب بالمفهوم الغربي ينطبق عليهم وعلى إجرامهم كما ذكرنا.

إنه يذكرنا بما فعله الذين هاجروا من أوروبا عند اكتشاف أمريكا كما يدعون مع السكان الأصليين لأمريكا وهم الهنود الحمر، من قتلهم وإبادتهم عن بكرة أبيهم.

إنه كذلك يذكرنا بما فعله المستعمرون بالبلدان التي استعمروها، وكيف أنهم قتلوا الأبرياء لتحقيق مصالحهم الشخصية، وبناء مستعمراتهم وحضاراتهم المزيفة، والقصص كثيرة لقتلى بالملايين وبمجازر غربية ارتكبت بحق الإنسانية تحت هذا التعريف خلال الحرب العالمية الأولى والثانية، وغير ذلك من الحروب الدينية والعنصرية لملل الباطل، لكن هل ذلك ينطبق على المقاتلين المسلمين؟

إن الإرهاب في الإسلام لا يكون إلا للأعداء الذين يحاربون الإسلام.

نعم فلم يكن يومًا يستهدف المدنيين أو الأبرياء بل ذكر الله ذلك في كتابه الكريم عندما قال سبحانه: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ [1].

إن مما يسيء كذلك ليس استخدام الغرب هذه المصطلحات على جهاد المسلمين، بل استخدام بعض المسلمين لهذه المصطلحات وموافقة الغرب على ذلك ولذلك قد نسأل:

ما هو مقياسهم في ذلك؟

على ماذا اعتمدوا؟

ما هي مراجعهم؟

لماذا كذلك يسمون الجهاد تطرفًا ويقارنوه بالإلحاد أو الانحلال على أنه تطرف آخر؟

لماذا يرون أن الوسطية هي بين الجهاد والانحلال؟

هل كان مقياسهم الغرب الذي وضع ذلك التصنيف ظنًا منهم بأن سياسة القتال عند المسلمين هي مثل سياساتهم؟

---

[1] سورة الأنفال آية 60 .

أم أنهم يقيسون أمورهم وفق الثقافة السائدة أو رأي وتوجه الأكثرية في ذلك الوقت؟

أم هو الخوف من الغرب؟

أم هو الهوى؟

لنعلم بأن ذلك ليس مقياسًا بل هو سلاحًا بمعنى أصح.

هو سلاح أرادوا به أن يقضوا على حاكمية الله في الكون، ويضعوا مكانه قانونًا غربيًا يرضي شهواتهم وسطوتهم.

قانونًا يصنفونه كيفما يريدون ووفق ما يقضون به مصالحهم .

أو قد يكون ذلك جهلًا من بعضهم بهذا الدين، وأنهم اعتمدوا على ما يُروج له الإعلام في حكمهم.

إن الجهاد في الإسلام هو رحمة.

هو بلسم.

هو قوة رحيمة، لأنه كما ذكرنا من أجل الإنسان وللإنسان لإخراجه من عبودية البشر إلى طريق الحرية.

إلى عبودية الصانع الحقيقي للكون إلى حرية الجنة كما ذكرنا.

إلى الدين الحق، لينعموا بعدالته حتى لو لم يسلموا.

إن القوة لم تكن هي أول الحلول لدى الإسلام كما ذكرنا، وليس ذلك للمستأمنين فقط لكن حتى للأعداء، و تأملوا معي هذه القصة لتعرفوا مدى رحمة الإسلام، وأن القتال الذي تدعون بأنه قسوة ما هو إلا من أجل البشرية، ولبقاء الدين الذي يحي لهم الحياة الآخروية:

تقول القصة: أن النبي ﷺ عندما أراد أن يدعوا الغساسنة للإسلام أرسل لسيدهم رسالة مع الحارث بن عمير رضي الله تعالى عنه كعادته في دعوة القبائل للإسلام، لكنهم قتلوا الحارث بن عمير رضي الله عنه، فأرسل على إثر ذلك ﷺ صحابته رضوان الله تعالى عليهم في غزوة تسمى غزوة مؤتة، وبعد أن أمر عليهم زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنه أوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير ويدعوا الغساسنة للإسلام فإن أبوا قاتلوهم ثم قال:

(اغزوا باسم الله، في سبيل الله، من كفر بالله، لا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تقتلوا وليدًا، ولا امرأةً، ولا كبيرًا، ولا فانيًا، ولا منعزلًا بصومعة، ولا تقطعوا نخلًا، ولا شجرةً، ولا تهدموا بناءً).

لنتأمل تلك التوجيهات والنصائح التي يمليها ﷺ لمن يبعثهم.

لنتأمل كيف أنه عليه الصلاة والسلام بعث في أول الأمر برسول يدعوهم للإسلام، ولما قتلوه أرسل جيشًا وأوصى ذلك الجيش.

أوصى الجيش بكلمات..

تلك الكلمات التي لم ينساها ﷺ وهو يرسل جيشًا لمن غدروا برسوله.

لمن بالغوا في الطغيان.

تلك الكلمات التي رفقت بالطفل، والمرأة، والعابد، و الشيخ، بل حتى الشجر، والبناء.

إنها كلمات لا يقولها من يبحث عن سلطان.

عن مُلك أو سطوة.

عن ذهب أو فضة.

إنها كلمات من محمد ﷺ لقائد مجاهد يذكره بأنه ما خرج إلا رحمة.

إنها توجيهات ونصائح تتتابع جيلًا بعد جيل، ومن قائد لآخر، لنشر الإسلام وإنقاذ البشرية.

وحتى تتضح الصورة أكثر لنتأمل كذلك هذه القصة الأخرى:

بعث خليفة المسلمين عمر بن عبدالعزيز جيوش المسلمين إلى آسيا شرقًا لفتح بلدانها ونشر الإسلام فيها، ففتحوا البلاد تلو البلاد، حتى وصلوا سمرقند، فتوغلوا وفاجئوا أهلها ودخلوها فاتحين، فخاف الناس، ودخلوا بيوتهم، وهرب الرهبان، لكن أهل سمرقند ما لبثوا أن خرجوا من بيوتهم لممارسة حياتهم لأنهم لم يجدوا من المسلمين أي نوع من أنواع الأذى خاصة بعد أن تشاجر مسلم مع سمرقندي فحكم قاضي المسلمين للسمرقندي، لكن الرهبان لم تعجبهم طريقة فتح المسلمين للبلد، فأرسلوا رسولًا منهم إلى خليفة المسلمين في دمشق يخبروه بالذي حدث من قائد المسلمين قتيبة بن مسلم، وكيف أنه دخل البلاد بطريقة جديدة ليست كفتوحات المسلمين المعتادة، و هي أنهم يطلبون أولًا من أهل البلد أحد ثلاثة أمور:

إما الإسلام أو الجزية أو الحرب.

لكن قتيبة قائد المسلمين دخلها مباشرة دون أن يخير أهل سمرقند، فأرسل عمر بن عبد العزيز بورقة صغيرة مع هذا الرجل إلى قاضي سمرقند المسلم، فأخذ الورقة، ومضى إلى سمرقند وهو يسأل نفسه كيف ستفعل هذه الورقة الصغيرة أمام قوة قتيبة بن مسلم، لكن ما إن أعطى الورقة للقاضي فقرأها

القاضي فإذا خليفة المسلمين يأمره بأن يحكم بين قتيبة بن مسلم وبين كهنة سمرقند، فأحضرهم القاضي أمامه، وأقر قتيبة بأنه دخل البلاد دون تخيير، عندها أمر القاضي بخروج جميع المسلمين كما دخلوها ليس معهم شيء حتى يخيروا أهل سمرقند أولًا.

نعم، حكم القاضي بذلك، و خرجت جيوش المسلمين، وتركوا لهم البلاد، فتعجب أهل سمرقند من ذلك الحدث العجيب الذي من المستحيل أن يحدث من أي قوة في العالم إلا لأنهم قوم حق وعدل، فدخلوا في الإسلام.

نعم، دخلوا في الإسلام لأنهم عرفوا عدله ورحمته.

دخلوا الإسلام لأنهم عرفوا حقيقة الإرهاب ومفهومه لدى المسلمين، وأنه فقط لتخويف الأعداء المحاربين، والنيل منهم لإقامة حكم الله في الأرض، وليس من أجل أهل البلد أبدًا.

دخلوا في الإسلام وليعلم الجميع وليس أهل سمرقند فقط مدى رحمة الإسلام، و أن ما يشاع الآن من أن الإسلام دين خراب ودمار وقتل ما هي إلا مسميات أطلقوها ضمن حربهم على الإسلام و أهله، لتنفير الناس عنه، ولكراهية هذا الدين وإطفاء نوره، والله متم نوره.

إنها دعوة حق ورحمة وسرايا تسير بمنهج الله، فليست هي نضال ماركسي أو عرقي، وليست هي حركة ثورية لتحقيق مآرب دنيوية أو مطالب شخصية، وليست هي مشروع استعماري لاستعباد الناس وإذلالهم.

إن الجهاد ليس مثل قتال الغرب الذي دمر البشرية من أجل ملذاتهم و سيطرتهم على البشر.

ليست القضية بسط نفوذ لزيادة مساحة الظلم والملك.

لا، فلم يقضي الإسلام على الهنود الحمر من أجل ضم أراضي جديدة، لم يحرم إفريقيا من ثرواتها ويأسر أبناءها و يستعبدهم من أجل المال.

لم يلقي قنبلة إبادة على هيروشيما، ولم يستولي على البلدان من أجل نهب خيراتها.

لم يقتل الأطفال والنساء في فيتنام والبوسنة وفلسطين والهند وبورما والايغور وغيرها، لم يخلف ملايين القتلى في الحرب العالمية الأولى أو الثانية، و لم و لم و لم.

إنها فقط سرايا من أجل الناس.

لأجل البشرية.

إنها سرايا لدعوة الناس ولعرض الإسلام عليهم وإخراجهم من الضلال الذي هم فيه، فإن رفضوا كل أمر أو حل يعرض عليهم فإن البراءة منهم ومواجهتهم بالقوة لابد منها، والقوة هنا هي التي أمرنا بها الإسلام، لا التي يستخدمها أهل الكفر.

هي قوة و إن كانت قاسية أحيانًا بحق الأعداء الذين يحاربون الإسلام وينكلون به، لكنها هنا لا بد منها ليُزجَروا ويخافوا ويرهبوا وليكفوا أذاهم عن المسلمين.

لابد منها ليعلو الإسلام في كل أرجاء الأرض.
لا بد منها لأجل الناس.

بل لأجل كل الكائنات.

لأجل أن لا يستمر باطل هذا الجيل، بل لابد من أن تأتي أجيال بعدهم تعيش تحت ظل الإسلام، وتستنير بنوره، فتؤمن به بطمأنينة ودون أدنى موانع تعيق ذلك لتفوز بالآخرة الباقية وبرضى الله سبحانه، لا أن تكون تحت حكم الباطل فيضغط عليها، وتبقى على جهلها.

لا بد منها لأنها لو لم تكن كذلك لقضى عليها الكفر، والواقع شاهد كيف أنهم اليوم يتربصون بالمسلمين يوم أن تركوا القوة

التي يقيمون بها الدين و ينشرونه، ويرهبون بها أعداء الله، وإن ذلك رد على كل من يقول: لماذا لا يكون جهاد المسلمين جهاد دفع لا جهاد طلب.

إنه طلب من أجل أن يظل الإسلام قويًا، ومن أجل أن يستنير بنوره كل إنسان في شتى أرجاء الأرض.

إننا نرى كيف أنهم اليوم استغلوا ضعف المسلمين وتركهم للجهاد والدعوة بحجة السلام العالمي، فنالوا حتى من ثوابته وشعائره بل ومن أنبيائه.

إن الإجرام الحقيقي هو في محاربة ذلك النور، وتلبيسه التهم، ومحاولة إطفاءه حتى لا يضيء للأرض ويبقى الناس في ضلالاتهم يعمهون، وإن اختلفت المسميات والطرق في حربه.

إن الإسلام اليوم يجد الاضطهاد والتنكيل من ملل الكفر والنفاق ومن والاهم في أرجاء المعمورة لأنهم شعروا بأنه المهيمن على قلوب الناس كدين حق وعدل، ورأوا كيف أن الناس أصبحوا يجدون فيه نفوسهم وشعروا معه بإنسانيتهم وتحققت لهم العدالة الاجتماعية الصحيحة لا المزيفة، فما كان من ملل الكفر والنفاق إلا أن اتهمت الإسلام وناصريه باتهامات، وألبسته المسميات التي تثير الناس عليه وعلى من يدافع عنه أو يدعوا إليه كما

ذكرنا، بل وحاربتهم وأججت من حولهم في كل مكان، حتى تقضي على الإسلام الصحيح بدعوى تحقيق السلام المزعوم الكاذب.

إن ملل الكفر والنفاق ترمي حتى بقوانينها عرض الحائط لو كانت تلك القوانين يومًا في صالح ناصري الحق هنا أو هناك، وهي التي تدعي تطبيق القانون.

تفعل كل ذلك وغير ذلك فكان لا بد من القوة.

نعم، لابد من القوة والمواجهة بكل ما نملك، دون تخاذل أو تهاون معهم، من أجل حماية هذا الدين والدفاع عن أراضي المسلمين، وتقديم التضحيات من أجل ذلك، ثم الانطلاق مرة أخرى لنشر ذلك النور لينير للبشرية في أرجاء الأرض وإزالة الباطل من الوجود.

قد يقول قائل:

كيف يكون الإرهاب للأعداء فقط المحاربين للإسلام دون المسالمين لتحقيق دخولهم في الإسلام؟

كيف يريد الإسلام أن يقنعني بأنه سيترك لهم الحرية في اختيار ما يريدون؟

ما فائدة الجهاد إذا لم يصنع مجتمعًا مسلمًا بعد ذلك؟

لماذا لا نترك للكافر اتخاذ قراراه بالدخول إلى الإسلام بالتفكير دون قتال؟

لنعلم هنا بأن الإسلام عندما يفتح البلد ويحكمها بحكم الله المطلوب تحقيقه على الأرض لتكون كلمة الله هي العليا سيكون الحكم حينها كله لله، على المسلم والكافر، فيعيش الإنسان حينها في ظل الإسلام، وعندها يستطيع بحرية أن يقرر الدخول في الإسلام وإنقاذ نفسه من النار، أما لو كان الإنسان تحت حكم الرومان أو أي ملة من ملل الكفر والنفاق هل يستطيع أن يقرر بحرية وبدون منغصات دخول الإسلام وإنقاذ نفسه؟

الجواب لا.. لأنه سيجد الأذى والتضييق في إقامته لشعائر الدين، وقد يُقتل بسبب ذلك، لكن عندما يكون ذلك الإنسان تحت حكم الإسلام، ويرى بعينيه سماحة هذا الدين وشموليته، ويرغب بالدخول فيه، فإنه حينها سيستطيع ذلك دون خوف أو موانع.

لا تقل لي بأن الإنسان في بلاد الكفر يستطيع الدخول في الإسلام بحرية ومن ثم إظهار شرائع هذا الدين بدون منغصات، ولو سلمنا بذلك فإن المؤثرات التي حوله من مغريات وانفتاحية

أو عهر لا تساعده على الثبات، أو حتى التحكم في تربية ابنائه تربية إسلامية، والذين هم جيل المستقبل.

إن هذا الدين لابد له من أن يستقر في القلب، ولن يكون ذلك في وجود منغصات، بل سيقرر الإنسان ذلك بعد أن تُفتح البلد وتستظل بظل الإسلام، ويقترب من معانيه دون خوف.

إنه قتال رحمة لا جبروت، وشتان بينهما.

إن الإسلام وُجد على هذه الأرض ليعيش بين الناس لأنه حق لهم جميعًا، لا أن ينفرد به إنسان دون آخر، ولا أن يكون لمجموعة دون أخرى.

إن الضعف الذي يعانيه مسلم أو مسلمة في أقاصي الأرض والذي سبب لهم الأذى والتنكيل والتعذيب والاضطهاد ولم يمكنهم لأن يمارسوا شعائرهم الدينية، أو أن يستطيعوا أن يربوا أبناءهم تربية إسلامية، ليس بسبب أنهم معزولون وليس لهم إلا أن يسلموا أمرهم.

ولا بسبب أنهم رضوا أن يقيموا بين ملل الكفر، وإن كان لا بد لهم من أن يتركوا ديارهم.

لا..

بل لأن أخوتهم في مكان آخر من العالم لم يعيشوا قضيتهم.

لم ينصروهم.

لأنهم لم يعملوا لأن تكون أرض هؤلاء المستضعفين تحت حكم الله، أو على الأقل أن يُجبروا من آذاهم على احترامهم، وأن يضربوا لهم حسابًا في أقل الأحوال وبأي وسيلة.

لم يفعلوا أيًا من ذلك بسبب ضعفهم، أو تقصيرهم، أو عدم استشعارهم بأهمية نصرة إخوانهم المسلمين، أو بابتعادهم عن الدين، وهذا ما أراده وسعى من أجله أعداء الإسلام للإسلام حتى يضعف وينكمش.

إنه تقصير.

نعم هو تقصير لا بد أن نقر به، وقضية لا بد أن نفهمها، وصراع لا بد أن نعرف أبعاده.

قبل أن نختم هنا هنالك تساؤل:

لماذا المسلمون في جهادهم يُقبلون على الموت؟

ماهي فلسفتهم في ذلك؟

لماذا يغلبون أعدادًا كبيرة، بل و يذيقونهم الويلات؟

لا تقل لي بأنها العقيدة فقط، فهنالك أيضًا من يقاتلهم وهو يملك عقيدة.

للإجابة هنا لا بد أن نعلم بدايةً بأن كل ذلك بسبب الله.

من عند الله.

صحيح أن غيرهم قد يمتلك عقيدة لكنها بالتأكيد عقيدة باطلة.

نعم هي باطلة، وقد تكلمنا من أن كل الديانات في هذا الكون هي ديانات باطلة لأنها ليست من عند الصانع الحقيقي، ولذلك لم تتمكن تلك العقائد الباطلة من أبنائها وإن أظهروا تمسكهم بها، لكنها تسقط بالتأكيد عند أول الطريق.

لم تقدم لهم ما يشعرهم بالطمأنينة.

ما يشعرهم بصدقها.

إن المسلمين يقاتلون ويشعرون بأن الله يقاتل معهم، وأنه سبحانه يمدهم بجنود من عنده، ولذلك هم ينتصرون.

نعم ينتصرون، وكيف لا ينتصرون ولا يشعرون بذلك وهم يعبدون ربًا حقيقيًا قويًا، كل شيء في الكون يدل عليه، لا ربًا مزيفًا لا حياة فيه.

إن الإسلام هنا تمكن منهم، فلم يكن بالنسبة لهم صلاة وصيام فقط، بل حياة.

أصبح الإسلام معهم حتى في نومهم واستيقاظهم.

في كل شؤونهم.

ولو لم يكن في كل شؤنهم لكان شيئًا آخرًا من ملذات الدنيا مكانه.

شربوا الإسلام فأشعرهم بالطمأنينة.

أشعرهم بالطمأنينة حتى وهم يموتون من أجله.

لا يخافون الموت طالما أن الإسلام رسم لهم بذلك جنة عرضها السماوات والأرض بلا حساب أو حشر، وضمنوا لأهليهم كذلك شفاعةً تضمن لهم ذلك المستقبل الأخروي.

يرون أن موتهم حياة أخرى لهم، وحياة لغيرهم، هنا في الدنيا في ظل سيادة الإسلام.

يقاتلون من أجل أن يكون المستقبل في الدنيا بلا حروب.

نعم.

إن كل حروب الدنيا لا تنتهي، فالصراعات مستمرة، وإن علت فئة ما فإنها ستُبقي الصراع بالظلم الذي ستقود به العالم، لكن الإسلام عندما يحقق العلو في هذا الكون فسيوقف الصراع، لأن عدله سيسود، وهذا ما يريده البشر، وهذا الذي لا يريد له أهل الشر أن يكون.

هل الإسلام يدعوا للكراهية؟

هل الإسلام يكره من حوله حتى نقول ذلك؟

يقولون بأن الإسلام في قتاله وخطاباته يدعوا إلى الكراهية، هل ذلك صحيح؟

قبل أن نجيب هنالك سؤال:

ما مفهوم الكره؟

الكره هي صفة عدائية نتيجة رسم صفة سيئة عن المكروه، أو بسبب حسد لوجود صفة إيجابية في المكروه.

هكذا أرى الكره.

هل الإسلام كذلك؟

هل وجد الإسلام في الديانات الأخرى صفة إيجابية أفضل منه؟

هل وجد الحياة كذلك؟

يستحيل ذلك، لأن الإسلام يقول بأنه دين الصانع، وبالتالي سيكون أفضل تلك الأديان طالما أنه دين الصانع، كذلك يملك الإسلام حياة الآخرة، والتي فيها الجنة، وبالتالي هي أفضل من الدنيا، وعلى ذلك فلن يكون الكره لذلك السبب، فهل نقول هنا بأنه يكره الأديان، ويكره الحياة لأن فيهما صفة سيئة؟

لنرى ذلك..

الكره هو ضد الحب، وبالتأكيد من يكره شيئًا لن يحبه.

الإسلام يدعوا إلى الاهتمام بالدنيا، مع الحرص على الآخرة، ويدعوا إلى إعمار الأرض، ورأينا اهتمامه بالتطور، وبالتالي بالحياة، وهذا بالتأكيد يدفعنا إلى دلالة أن الإسلام لا يكره الحياة، لكن ماذا عن الأديان الأخرى، خاصة وأن الإسلام يقول بأنها سيئة؟

نعم، الإسلام لا يحب الأديان الأخرى، و يأمر أبناءه بعدم حبها، ويقول بأنها أديان باطلة، ومحرفة، بل ويخاطب أبناء تلك الأديان بتركها، لكن كيف يخاطبهم؟

هل يقبل بهم إذا عادوا إليه ونجح في إقناعهم؟

إن الإسلام يخاطب أبناء تلك الأديان بالحكمة والعقل.

بالبراهين والدلائل.

ثم بالجنة والنار، وبالتأكيد من يخاطب بهذه الطريقة لا يكرههم، لأنه يريد لهم أن يعقلوا، ويفكروا ليعلموا أين الحق، وليطلبوا الجنة ويخافوا من النار، بل ويفرح بتوبة من كان يتبع تلك الأديان، ويقبلهم، وبالتالي هو هنا يريد لهم الخير، فهل ذلك كره؟

هل الإسلام لا يقبل بعيش غير أبنائه معه؟

بالتأكيد.. لا، بل وينظم لمن يعيش على أرضه من غير أبنائه حقوقهم، وما لهم وما عليهم، وقد تكلمنا عن ذلك في حديثنا عن التكافل، وهذا يدل على أنه دين عالمي لكل البشر، ولكل مكان.

قد يقول قائل: لكن الإسلام رغم خطاباته مع أبناء تلك الديانات لا يتسامح مع الأديان؟

لنعلم هنا بأن الإسلام يريد أن ينقذ البشرية من تلك الأديان الباطلة، والتي اضرت بمن خلقهم الله لعبادته، وبالتالي كيف يتصالح معها وهو يري أنها سبب في إلقاء الناس في النار؟

تكلمنا من أن الحوار مع الأديان لن يكون، لأن الإسلام حق والأديان الأخرى باطلة، لكن بالإمكان أن تكون هنالك

مناظرات لا حوارات، لأن المناظرات يظهر فيها الحق من الباطل، وهذا الذي لا تريده الديانات الأخرى، لأنها ديانات باطلة، وصاحب الحق لا يخشى المناظرة فهل علمتم لماذا يخشون المناظرات ويريدون استبدالها بحوارات تظهر فيها روح التسامح؟

ثم لو قلنا بأننا تركنا كل ذلك بحجة تحقيق الهدوء وعدم الصراع كما يقولون فإن ذلك الهدوء سيسهل للباطل بأن ينتفش وينتشر، وبالتالي يُزين ذلك الباطل لكثير من الناس ويُغريهم بالانتماء إليه، لأنه لا يوجد من ينكر عليهم ذلك الباطل، أو يظنون أن سكوت الإسلام إقرارًا للباطل، فيُخدعون به، وعندها سيكون ذلك ليس ظلمًا لهم فحسب، بل هو ظلم للأرض التي لا بد لها بأن تستنير بنور الحق، والحق ليس له إلا طريقًا واحدًا.

إن كل البشر خلقهم الله، وهو سبحانه الصانع، فهل يرضى سبحانه بأن يأتي من يضلل مَن خَلقهم؟

هل الإسلام والذي هو دين الصانع، والذي يرى بأن كل البشرية أبناءه، يرضى بأن يترك أبناءه لضلالات ومعتقدات باطلة؟

حتى لو قال قائل بأنه طالما أنها باطلة فلم لا نتركها ليرى الناس أنها باطلة، فهل كل البشر بنفس العقلية لتميز الحق من الباطل؟

هل يعقل أن نترك النار تشتعل، وتأكل من حولها، لنقول ستعرف الناس أنها نار ولا تأتيها؟

إن الإسلام يحذر من تلك الأديان بشدة لأنه يرى خطورة اتباع البشر لتلك الديانات، وكذلك استمرار بقاء من ينتمي إلى تلك الديانات فيها.

كيف يريد من يقول بأن الإسلام يدعوا للكراهية أن يكون الخطاب؟

هل يريد من الإسلام أن يرد على تهنئتَهم له بأعياده، بتهنئتِهم في مناسباتهم؟

هل تناسى بأن الإسلام حق، وبالتالي أعياده حق، ومناسباتهم باطلة لأنهم أديان باطلة؟

هل يريد من الإسلام أن يذكر محاسن تلك الديانات؟

ما هي محاسنها؟

هل هي ديانات صحيحة؟

هل هي من رب حقيقي؟

هل هي موافقة لما أمر به؟

لو قلنا مثلًا بأن هنالك أمورًا متفق عليها، هل ننسى لب الموضوع؟

هل يريدون من الإسلام أن يتوقف عن بيان باطل تلك الديانات حتى لا يُتهم بالكراهية؟

هل يريدون تعايش؟

ليأتوا ويعيشوا تحت حكم الإسلام، ولن يظلمهم الإسلام، بل وسيشعرهم بإنسانيتهم، لا كما يعاملون هم المسلمين عندما يكونون تحت سلطانهم من تضييق، وإهانة، وسوء عشرة، بل وقد يصل إلى قتلهم أو إهدار دمائهم.

كيف يتعايش الحق مع الباطل إذًا؟ وكيف يريدونه أن يكون؟

هل يريدون من الإسلام أن يتركهم يعيشون معه لينشروا باطلهم؟

هل يريدون من الإسلام أن يخدع البشر ويسكت عن دعوة الناس الذين تحت حكم ذلك الباطل؟

هل يريدون من كتائب الإسلام أن تتوقف؟

إن كل ذلك هراء.

نعم هراء، وإنهم ما قالوا بذلك إلا لأن الأديان الباطلة ما استطاعت أن ترد على الإسلام، فقالت بأنه يدعوا للكراهية، ولو استطاعوا مجابهة الحجة بالحجة لفعلوا.

إنهم يريدون إسلامًا مخادعًا يتعايش معهم كما يريدون.

إسلامًا يتحكمون به.

يريدون للحياة أن تكون مثل السوق الكبير، كل دين يعرض بضاعته، دون أن يذكر تاجر مساوئ التاجر الآخر، ليبيع الجميع بضاعته، حتى لو كانت سمًا قاتلًا.

الفصل السادس

لماذا لا يكون كونًا مثاليًا؟

لماذا لم يخلق الله الناس على مستوى واحد؟

لم المرض؟

لم الألم؟

لماذا أحيانًا تكون الغلبة لأهل الباطل؟

لم كل ذلك طالما أنه على كل شيء قدير؟

طالما أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يجعل هذه الحياة على أرقى حال، ويتنعم فيها الناس جميعًا فلماذا الابتلاء إذًا؟

لماذا خير وشر، ونحن بينهما نختار؟

لماذا الشر يحيط بنا فنهرب منه؟

لم لا يكون الخير فقط؟

لم الخوف؟

لم وُجدت وساوس الشيطان؟ و لماذا تغوينا؟

أسئلة كثيرة تدور في مخيلاتنا ونحن نسير في هذه الحياة.

ونحن نمضي فيها بألم أحيانًا، وبسعادة أحيانًا أخرى.

إنها الدنيا بكل تقلباتها، فلم هي كذلك؟

بداية لنسأل:

هل يوجد شر؟

هل خلق الله الشر، أم أنه لا يوجد شر؟

يقولون بأنه لا يوجد ضد للأشياء!

لا يوجد برد، لكنها حرارة تحت الصفر!

لا يوجد فقر، لكننا قد نقول عن ذلك بأنه انعدام المال!

لا يوجد مرض، لكن ليس لديه صحة!

إن كل ذلك ليس بصحيح، فالبرد، والمرض، والفقر، كلها موجودة في هذه الحياة.

هل الأصل في الإنسان أنه لديه مال أم لا؟

لماذا لا نقول بأن الحر هو غياب البرد؟

لماذا لا نقول بأن الصحة هي غياب الفيروسات؟

لماذا لا نقول بأن السعادة بسبب انعدام الحزن؟

لنعلم بأن الله على كل شيء قدير، وأنه سبحانه يستطيع أن يجعل الدنيا كلها خير، أو يجعلها كذلك كلها شر.

يستطيع أن يجعلها على مستوى واحد.

لا ألم.

لا حزن.

لا مرض.

لكن مهلًا..

كيف سيكون العالم؟

كيف نعرف الصحة لولا المرض؟

كيف نذوق السعادة لو لم نجرب الحزن؟

كيف نميز الجمال لو لم نرى القبح؟

إن وجود كل ذلك هو تمام قدرة الله عز وجل، وخير عظيم لنا وحكمة منه سبحانه.

تمام قدرته، لأنه استطاع أن يوجد الشيء وضده.

وخير عظيم لنا لأننا بذلك عرفنا الأشياء بحقيقتها، ولذلك أوجد الله الخير وأوجد الشر سبحانه.

وحكمه منه سبحانه لتحقيق الابتلاء.

حسنًا.. قد يقول قائل: وما فائدة أن أفرق بين الأشياء أو أحس بالأشياء طالما أن وجود الخير والشر في الحياة سيكون سببًا لدخولي النار، وسقوطي في الابتلاء؟

صحيح أن ذلك سيجعلك في ابتلاء تصارع فيه هواك، لكن ثق لوأنك صادق سينجيك الله.

لم يطلب الله منك أن تقف في مكان ما، ولو أصابك الشر فأنت خاسر هنا.. لا، و لو كان كذلك لكان دخولك الجنة أو النار مسألة حظ، وهنا قد نقول بأن الشر حرمك من الجنة.

إن الله طالبك بأن تقدم لنفسك.

بأن تعمل لتحصد، فالأمور بيدك أنت.

أنت من يحدد.

وأنت من يقرر.

إن الحياة الدنيا بكل السنوات التي فيها فإنها لا تساوي شيئًا مقارنة بالخلود الأبدي، وإن ما يقضيه الواحد منا في الدنيا ليس شيئًا أما خلوده في الآخرة، وبالتالي ما يحدث هنا في الحياة الدنيا هو لا شيء، ولذلك لنصبر قليلًا.

لنثابر، ونجتهد، ولا نلتفت لأي شيء.

لنعلم أننا في ابتلاء.

نعم..

هو امتحان لنعرف النتيجة لكن مهلًا..

هل الله سبحانه وهو الخالق بحاجة إلى أن يَعرف ليجازينا؟

بالتأكيد.. لا، لكن ذلك من أجل إقامة الحجة علينا، فالجنة جزاء عظيم، والنار عذاب عظيم، وبالتالي من يدخل الجنة أو النار من المهم أن تقام عليه الحجة.

لكن لماذا كل ذلك؟

لما هذا التقسيم؟

هل من الضروري أن يكون هنالك مجموعة في النار وأخرى في الجنة؟

بالتأكيد لا.

لن ينفع الله أو يضره في ذلك شيء، فهو من خلق الجنة، وهو من خلق النار، وهو من خلق الذين سيدخلون الجنة، وهو من خلق الذين سيدخلون النار، ولم يخلق الله أهل النار لأجل أن يدخلهم النار، لكن لأنهم استحقوا ذلك بعد أن رفضوا أن يكونوا صالحين، ولم يستجيبوا للحق بإرادتهم.

لو كان الناس على مستوى واحد فلن يكون هنالك ابتلاءً، تمامًا كما لو كانت الحياة الدنيا على مستوى واحد، لكنها الفروقات والاختلافات التي بين الناس، والتي أوجدت ذلك.

إن الله سبحانه أوجد الخير والشر كما ذكرنا للابتلاء، لأن الدنيا دار ممر، والحياة لم تنتهي بانتهاء الدنيا، لكن تبقى الآخرة، وأن المجتمع المثالي الذي نريده سيكون في الجنة، وأن الله عدل لا يظلم أحد، وبالتالي تستطيع أن تعيش في المجتمع المثالي لو قررت أنت ذلك كما ذكرنا.

ثم أن الشر ليس دائمًا يأتي بشر، بل أحيانًا قد يكون خيرًا، فتأخرك عن الذهاب للمطار مثلًا هو شر، لكنه سيكون لك خيرًا لو سقطت الطائرة التي لم تلحق بها، وهكذا..

ثم لو تأملنا في هذه الحياة بكل تفاصيلها لوجدنا بأن الخير هو أكثر ما في الوجود و الشر أقل من ذلك بكثير، وذلك يدل على سهولة الحصول على ذلك الكثير فقط لو أردنا.

إنها سنية الحياة، وعدالة الله، ورحمته سبحانه.

وهل هناك يوم آخر؟

لم لا ينتهي هنا كل شيء؟

أو بمعنى آخر؛ لماذا لا يكون هنا كل شيء؟

لماذا نحن بحاجة إلى يوم آخر؟

بدايةً ماذا يعني اليوم الآخر؟

اليوم الآخر هو اليوم الذي يبدأ بعد نهاية يوم قبله.

إذًا فاليوم الآخر سيأتي بعد نهاية الدنيا.

لكن هل ستنتهي الدنيا؟

هل هنالك ما يدل على ذلك؟

إن كل ما هو حولنا يدل على أن الحياة ستستمر.

كل جيل يأتي بعده جيل آخر.. وهكذا.

تتوالى الأحداث وتتجدد، لكنها تبقى شاهدة، ودالة لنا على أن هنالك يومًا آخر.

نعم.. الأحداث.

تحدثنا من أن الدنيا دار ابتلاء، ومن أن الناس ليسوا على مستوى واحد، ولذلك هنالك شقاء، وهنالك ظلم، وهنالك سعداء، وهنالك مظلومين.

هنالك غني، وهنالك فقير.

كل هذه التصنيفات تدلنا على أن هنالك يومًا آخر، لأن الله عدل، ولا يظلم كما ذكرنا، ولو كانت هذه التقسيمات لحياة واحدة لكان ذلك ظلمًا لمن شقى في الدنيا، لكن لأنها دار اختبار وهذه التقسيمات بسبب ذلك الاختبار، وأن الناس لم تنتصر لحقوقها في الدنيا، ولم ينال المظلوم من الظالم، فكان لا بد من يوم آخر.

نعم.

لا تظن أن الموت ينتهي معه كل شيء.

ينتهي معه فقرنا، وضعفنا، ومعاناتنا، وألمنا دون أن يكون للصبر بقية.

لا تظن أن تموت الحقوق مع موت أصحابها.

تذهب مع موت الظالمين.

مع موت الطغاة.

لا.. الأمر ليس كذلك أبدًا، لأنه موت يبعث فينا الأمل.

نعم الأمل.

الأمل بأن كل شيء سيعود.

الموت يعني بأن من ظلمنا ذهب للمحاكمة، وأن المحاكمة لتبدأ بانتظار حضورنا كطرف ثاني.

بانتظار موتنا، ولذلك فالموت هو حياة جديدة لنا.

هو حياة جديدة طالما أننا نؤمن بالصانع الحقيقي، وأن قانون ذلك الصانع لا ينتهي بالموت.

إن قوانين الدنيا تسقط الحقوق معها بموت الظالمين، لكن الأمر ليس كذلك مع قانون الصانع الحقيقي.

مع الله عز وجل، ولذلك فالإيمان بالله هو حياة لنا.

هو إقرار بأننا سننال حقوقنا ممن ظلمنا.

هو إقرار بأننا سننال الأجر الكبير على صبرنا في الدنيا، وتحملنا لمعاناة كثيرة.

لطاعتنا، وعباداتنا، وتنازلاتنا.

هو سعادة، ولا يعني ضيق الحال في الدنيا أننا سنحرم من تذوق تلك السعادة فيها وإن جاءتنا على شكل انتظار، كمن يترقب صباح العيد طوال ليلته، لأن الانتظار هنا صنعه أمل ويقين وثقة بالله عز وجل.

إنه أمل أوجده الله في نفوسنا فكان الصبر، وكان الانتظار، وكان العدل.

إن الله الذي أبدع كل هذا الكون في بدايته قادر، على أن يبدع في نهايته.

الخاتمة

وصلنا للنهاية..

لتعلموا أحبتي بأن الحديث في هذا الكتاب كان سيأخذ بنا إلى تفاصيل أكبر فلسفيًا، لكنني أردت أن أبقيه هكذا ليحقق المنشود، خاصة أن هذا الكتاب موجه إلى مختلف الثقافات، والديانات، وأرجو أن أكون قد حققت المنشود، وقد أفصل في كتب أخرى.

ختامًا أقول لكم بأن ذاك هو دين الإسلام، وهذه هي الحياة، وتلك العلاقة بينهما بحسب ما أرى فلسفيًا، فإن أخطأت فمن نفسي، وإن أصبت فمن الله، وهما الأنسب لبعضهما، وبأمر الله، لا بأمر أحد، وإن كان هنالك من يرى غير ذلك فليناقش، وليسير بنفس الخطوات التي سار عليها هذا الكتاب، أو بأفضل منها إن أراد.

سأكون بانتظاركم لأقرأ عن ذلك من خلال حساباتي في صفحة رقم 2 ، أو من خلال كتاب آخر يرد على كتابي، وتقبلوا حبي.

الفهرس

المقدمة 6

الفصل الأول 9

المدخل 11

هل الأصل العلم بالشيء أم الجهل به ؟ 14

هل الفلسفة مطلقة أم مقيدة؟ 20

من أوجدنا هنا؟ ولماذا نحن هنا؟ 30

الفصل الثاني 43

فلسفة العبادة 45

هل يستطيع الإنسان أن يعيش دون عبادة؟ 65

هل هنالك اتصال بين المعبود والعابد؟ 78

هل الأخلاق تغني عن العبادة؟ 85

الفصل الثالث 97

صراع الدين والحياة 99

هل يحارب الإسلام العلم والتطور؟ 110

هل يمكن للدين أن يبني حضارة؟ 121

الفصل الرابع 129

مَن يستطيع تحقيق عدالة اجتماعية لهذا الكون؟ 131

الحرية 137

الاحترام 157

التكافل 162

المساواة 179

فلسفة الأنثى 188

الفصل الخامس 209

هل من الممكن لقوانين البشر أن تخدم العالم؟ 211

لماذا يريد الدين أن يقود العالم؟ 219

فلسفة الجهاد 226

هل الإسلام يدعوا للكراهية؟ 248

الفصل السادس 255

لماذا لا يكون كونًا مثاليًا؟ 257

وهل هناك يوم آخر؟ 264

الخاتمة 269

الفهرس 270

فلسفة الدين والحياة

تأليف : محمد علي الدباسي

صدر للمؤلف:

ثلاثة و عشرون عاماً من أجل التغيير

خطوات نحو السماء

من بطحاء مكة إلى سان فرانسيسكو

ممنوع دخول الرجال (رواية)

كتابات على جدار مائل

ارفع راسك

ISBN 9786030300716